الدكتور جيلالي بوبكر

البناء الحضاري عند "مالك بن نبي"

دار المعرفة

الدكتور جيلالي بوبكر

البناء الحضاري عند

"مالك بن نبي"

العنوان: البناء الحضاري عند "مالك بن نبي"
تأليف: الدكتور جيلالي بوبكر
إخراج وتصميم: قسم التصفيف « دار المعرفة »
المطبعة: « دار المعرفة »
ر.د.م.ك : 978-9961-48-626-9
الإيداع القانوني : 2010 / 2464

دار المعرفة

10 نهج عبد الرحمان ميرة باب الوادي الجزائر

http//www.elmarifa.com

الدكتور جيلالي بوبكر

البناء الحضاري عند

"مالك بن نبي"

دار المعرفة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾

سورة الرعد، الآية 11.

******

﴿ذلك بأنّ الله لم يك مغيّرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم وأنّ الله سميع عليم﴾

سورة الأنفال، الآية 53.

******

﴿وأنّ ليس للإنسان إلاّ ما سعى وأنّ سعيه سوف يُرى، ثم يُجزاه الجزاء الأوفى﴾

سورة النجم، الآيات 39 – 40 – 41.

مقدمة

إنّ التقدم الذي يحققه الإنسان من خلال العمل في حياته الفردية والاجتماعية يشكّل ظاهرة إنسانية متميّزة وفريدة في نوعها، منها تتشكّل الحضارة، وبها يقوم البناء الاجتماعي ويتحرك التاريخ، فتنهض الأمة وترقى في سُلّم التجديد الحضاري، وكل تغيير وتحوّل وتجديد في الفكر والسلوك، وفي نمط العيش وفي وسائل العمل وأساليبه وفي غير ذلك من جوانب حياة الإنسان يُعدّ من روح التحضر ومن صميم الحضارة، ويُعرفُ بالتجديد الحضاري الذي هو وراء أيّ حضارة وأساس كل تقدم.

وظاهرة التجديد الحضاري ترتبط سببيا وحتما بكل فاعلية إنسانية تستهدف بناء الإنسان ذاتيا واجتماعيا وتاريخيا، وترتكز على أيّة انطلاقة نحو بناء التاريخ والتقدم وصنع الحضارة، فهي وراء كل نهضة أو صحوة بعد غفلة وضياع.

إنّ ظاهرة التجديد الحضاري ليست هبة من الطبيعة، وليست وحيا يُوحى من السماء، بل تنتج من الكدّ والجدّ والاجتهاد والمبادرة، ينهض بها مناضلون يحدوهم إيمان راسخ بعظمة الرسالة وتشدّهم عزيمة قويّة، وتقوى فيهم روح المسؤولية، فيكرسون حياتهم للرسالة الحضارية بعيدا عن اليأس والتردد ومن دون تراجع، على الرغم ما تنطوي عليه هذه المسؤولية وهذه الأمانة من مصاعب وما تسببه من مخاطر وما ينتج عنها من معاناة، فكان هؤلاء رواد نهضة وقادة فكر، وصناع تاريخ وأصحاب كلمة وعمل، فالكلمة الطيبة الخيّرة مستقلة وحرّة هي مسؤولية وأمانة، والفكرة الصحيحة درّة وجوهرة تنال التضحية والفداء في سبيلها، وتحمل كل الصعاب والتحديات لأجلها.

إنّ شهادة التاريخ تؤكد أنّ الانفجار الحضاري في أي عصر وفي أي مصر موصول سببيا وحتما بأناس مناضلين، كلّ في موقعه، داعين إلى التجديد الحضاري ومدافعين عنه ومحددين شروطه ولوازمه، هو التجديد الذي ينبغي أن يقع في الإنسان ذاته، يحدث في داخل أعماق نفسه، يجري بعد ذلك في المحيط الخارجي الاجتماعي والطبيعي الذي يعيش فيه الإنسان، ذلك ما عرفته كافة الحضارات التي شهدها التاريخ، منها الحضارات الشرقية القديمة والحضارة اليونانية والحضارة الإسلامية وكذلك الأمر بالنسبة للحضارة الأوربية الحديثة والمعاصرة.

لمّا كان التجديد الحضاري شرط البناء الحضاري وأساس إستراتيجيته ومحرك التاريخ، هذا البناء وهذه الحركة كلاهما ينطلق بعناصر وشروط ولوازم، ويمر بأطوار وتواجهه مشكلات ويحصد منتجات في بيئة لا تخلو من النقص والضعف في جميع مجالات الحياة، والحضارة قد تقوم في حياة قوم ضارب في البدو والبساطة، كما قد تقوم في حياة قوم صحوا بعد غفلة ونهضوا بعد سبات وتطوروا بعد تخلف وانحطاط، في كل الحالات يتطلب الأمر بذل الوسع والتفاني في العمل والمزيد من ذلك في المجال الروحي والفكري والثقافي والعلمي من جهة وفي المجال العملي التطبيقي والتكنولوجي من جهة أخرى، يتعلق الأمر في المجال الثاني بالفنون والصناعات والتقنية والعمل ووسائل العمل وعلاقات العمل وغيرها، ما دامت الحضارة في جوهرها عبارة عن تقدم وتجديد في الجانب العلمي والفكري وانعكاس ذلك على الحياة المادية والعملية.

إنّ فعل التغيير الذي ينهض به رواد الفعل الإصلاحي وزعماء حركة التجديد لا ينطلق من العدم والفراغ بل له أسبابه وانعكاساته، ينمو ويتبلور تدريجيا حتى ينضج فيبلغ ويكتمل، فيصبح صالحا للاستعمال والاستثمار، هو الأمر الذي عرفته الحضارات السابقة والحضارة الإسلامية منذ أن تأسست على يد النبي صلى الله عليه

وسلم إلى وقت أفولها وانهيار معالمها، ولم يبق منها سوى الذكريات والعبر محفوظة في الأذهان وفي الكتب وفي غيرها من مصادر التاريخ المباشرة وغير المباشرة.

لما جاء عصر الانحطاط شهد فيه المسلمون أزمة عميقة عمّت حياتهم ككل دينيا وفكريا وسياسيا واجتماعيا، وانتهى الأمر في العصر الحديث بتعرض كافة الشعوب العربية والإسلامية للغزو الاستعماري الفكري والثقافي والعسكري الأوربي، الغزو الاستعماري الذي جدّ واجتهد وبذل كل ما في وسعه لطمس الشخصية العربية الإسلامية، وسخّر لذلك كل ما أوتي من قوة مادية ومعنوية، فازداد العالم العربي والإسلامي ضعفا وانحطاطا على الرغم من المحاولات الإصلاحية والمبادرات التحررية والفكرية والسياسية المنبعثة ممن تسلّحوا بالروح الثورية الإسلامية سواء في مجال الفكر أو في مجال العقيدة أو في مجال السياسة، من هؤلاء المفكرين ورواد الإصلاح ودعاة التجديد وأصحاب الفكر الحرّ الداعي إلى النهضة "مالك بن نبي".

يكاد يتفق الدارسون والنقاد من داخل الأمة العربية والإسلامية ومن خارجها في عصرنا على غياب رؤية فلسفية نقدية جريئة وجادّة ووجيهة للواقع والتاريخ والحياة عامة في العالم العربي والإسلامي المعاصر لدى زعماء الإصلاح ودعاة التجديد، وانعدام نسق فكري متكامل يتناول قضية الحضارة ومسألة التاريخ، والرؤية القائمة عاجزة تماما عن إدراك سنن وقواعد التغيير وعن الإلمام بشروط ولوازم النهضة الحضارية والبناء التاريخي، ويتعلق الأمر بدواعي التجديد وصنع الإبداع وإيجاد التطور والتقدم على مستوى الفكر والعمل، فليس بحوزة الفكر العربي الإسلامي الحديث والمعاصر "فلسفة حضارة" أو "فلسفة تاريخ"، فلسفة تسمح بالتخلص من الانحطاط والتخلف وتهدي إلى سبيل التحضر والتطور والازدهار، فكل حضارة من الحضارات التي عرفها الإنسان عبر تاريخه الطويل

لها أسس وأصول فلسفية وفكرية وتاريخية تأسست عليها، تعكس تلك الأسس والأصول فلسفة الحضارة وفلسفة التاريخ باعتبارها الإطار الفكري التاريخي النظري المرجعي الذي تحتاجه أيّة نهضة ويحتاجه كل تغيير وتقدم.

في الواقع لا يخلو العالم العربي والإسلامي من محاولات فكرية إصلاحية ونهضوية تجديدية جادّة وجريئة تتسم بالنسقية والعلمية والوجاهة، لأنّ أزمات ومحن المجتمع العربي الإسلامي الموروثة والمتراكمة والعميقة أنتجت رواد فكر تميّز بالأصالة والإبداع والتجديد، تجاهلته الرؤية التي تنفي كليا عن الفكر وعن الثقافة في العالم العربي والإسلامي القوّة والمتانة، وتضعه دون مستوى الفكر الغربي، ومن هؤلاء الرواد "مالك بن نبي" وهنا نتساءل لماذا "مالك بن نبي"؟.

كان "مالك بن نبّي" مفكرا متميزا، اهتم بقضية النهضة ودرس موضوع الحضارة، ركّز بالدرجة الأولى على البحث في شروط النهضة ودواعي التحضر، وعمل على كشف وحصر أسباب التخلف والانحطاط، وعلى تحديد عوامل التراجع وسقوط الحضارات وأفولها، وقدّم نظرية في الحضارة وإستراتيجية في البناء الحضاري وفي تفسير التاريخ تختلف عن تلك التي جاء بها مفكرون غربيون محدثون ومعاصرون أمثال "أرنولد توينبي"و"أوزولدسبنجلر" و"فيكو" وغيرهم.

شغلت"مالك بن نبي" قضية الحضارة، فأدرك تماما أنّ مشكلة أيّ شعب في أصلها وفي جوهرها مشكلة حضارته، ولما كان العالم العربي والإسلامي يعيش حالة التخلف والانحطاط والانحلال والانعزال والاستعمار بمختلف أشكاله، عاش هو لأمته العربية الإسلامية،ولفكره ولنظريته التي تؤمن بأنّ العالم العربي والإسلامي المعاصر يمتلك من الطاقات والإمكانيات الروحية والمادية ما يدفع به فعلا إلى الإسهام الحقيقي في حلّ مشكلاته وهي مشكلات حضارة لا غير، وما يؤهله

لبلوغ التحضر والرقي، وما يسمح بالمساهمة الفعّالة والحقيقية في مسايرة الركب الحضاري المعاصر وفي تطوير العالم.

إنّ التخلف الفكري والديني والثقافي والانحطاط الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والاستعمار والقابلية للاستعمار كل ذلك أوضاع وظروف تسقط من الوجود إذا تمسكت الأمة الإسلامية بالقاعدة القرآنية التي تدعو إلى التغيير والتجديد والتحوّل على مستوى الذات الإنسانية أولا وفي داخل أعماقها، أما التغيير على مستوى العالم الخارجي الطبيعي والاجتماعي فيكون بعد التغيير الذاتي الباطني للذات الإنسانية، ويكون الله في عون العبد المسلم ما دام يغيّر ذاته أولا ثم يغير محيطه الخارجي، عملا بقوله تعالى:

﴿لا يغيّر الله ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾. "سورة الرعد، الآية 11».

إنّ خطة "مالك بن نبي" وإستراتيجيته في البناء الحضاري وأسلوبه في الإصلاح والتجديد كل ذلك يعكس فكره وفلسفته في الحضارة وفي التاريخ، ويجد فيها من دون شك المسلم وغير المسلم في عالم التخلف والانحطاط تعبيرا عن أوضاعه وعن تطلعاته وآماله، كما يجد فيها الوسائل والسبل الكفيلة بالانتقال من عالم التخلف إلى عالم التحضر، فهي إستراتيجية تستحق العناية والاهتمام، وجديرة بالدراسة والبحث والاستثمار.

إنّ الإشكالية التي يعالجها البحث قي هذا الكتاب "إستراتيجية البناء الحضاري عند مالك بن نبي" تدور حول البحث عما تتميز به هذه الإستراتيجية عن غيرها من المحاولات الفكرية والمبادرات الفلسفية التي سبقتها أو تلك التي عاصرتها، ومحاولة "مالك بن نبي" أفرزتها ظروف تاريخية، فكرية وسياسية واجتماعية، عرفها العالم العربي والإسلامي الحديث والمعاصر، وشهدتها المحاولات الإصلاحية الأخرى لكنها لم تكن في مستوى محاولة "مالك بن نبي". لذا تناول البحث الإشكالية في إطار أحوال العالم العربي والإسلامي في أيام "مالك بن نبي"، وفي سياق الحركة الإصلاحية الحديثة

والمعاصرة داخل المجتمع العربي والإسلامي، وركّز البحث على نظرية الحضارة وعلى أسس ومعالم وملامح هذه النظرية، كما وقف على ظاهرة التجديد الحضاري من حيث أسسها وملامحها، خاصة ملمح إستراتيجية التجديد الحضاري واستمرار الأمة باعتبارها أساس إستراتيجية البناء الحضاري في فلسفة "مالك بن نبي"، ثم ركّز البحث على نقد الفكر الإصلاحي لدى "مالك بن نبي"، وعلى مكانة هذا الفكر الإصلاحي ومكانة النظرية المنبثقة عنه في سياق الحركة الإصلاحية الحديثة والمعاصرة في العالم العربي والإسلامي بصفة خاصة وفي العالم المتخلف بصفة عامة.

إنّ الهدف من تناول نظرية الحضارة وإستراتيجية التجديد الحضاري في هذا البحث هو الكشف عن جوانب التفرد والخصوصية في هذا الفكر، وتبيان ما فيه من قوّة ومناعة تدفع بالمجتمع العربي والإسلامي إلى مراجعة ما آل إليه من تدهور وانحطاط في كافة مجالات الحياة، وارتبط ذلك بوجود حضارة غربية راقية ومزدهرة في كافة ميادين الحياة، خاصة ميدان وسائل العمل وأساليب السيطرة على الطبيعة، من خلال التقدم العلمي والتكنولوجي، باعتبار التقنية هي التطبيق العملي والمادي للنظريات والحقائق العلمية.

توجد اعتبارات كثيرة قديمة وحديثة تقول بأنّ مقومات الإبداع وشروط التحضر والتطور ليست من نصيب جميع الناس، فهي من اختصاص بعض الناس دون الآخر، بينما صيحة "مالك بن نبي" وغيره من أصحاب الفكرة الحرّة المسئولة أبطلوا كل هذه الاعتبارات الداعية إلى العنصرية المدمرة، والمكرسة لظاهرة التفاضل والتباهي بالأجناس القاتلة، فالحضارة لا وطن لها، والعلم ليس حكرا على أحد، والتقدم الحضاري من نصيب أيّة أمة طالما توفرت شروطه ولوازمه وظروفه.

إنّ إستراتيجية البناء الحضاري في فلسفة "مالك بن نبي" تُفند كليا ومطلقا ما تذهب فيه النزعة المركزية الأوربية من

اعتبار الحضارة مرتبطة في أصلها ونشأتها بعنصر بشري معين وبجنس محدد له خصائصه البيولوجية لا توجد في غيره، وهي تقتصر على هذا الجنس، وإن وجدت ملامح التحضر خارج هذا الجنس فإنّها جاءت بفعل التأثر لا بفعل الإنتاج والإبداع.

تمثل نظرية الحضارة في فكر "مالك بن نبي" مرجعية التجديد الحضاري الذي هو أساس كل بناء حضاري، لذا تمّ التركيز في البحث على مفهوم الحضارة، وصلتها بالتاريخ، وبالثقافة وبالدين وبالفكرة الدينية، وتمّ تحديد عناصرها وأطوارها ومشكلاتها ورسالتها. أما بالنسبة للتجديد الحضاري فتمّ التركيز على مدلوله وأبعاده وشروطه وميادينه وموانعه. و"مالك بن نبي" مفكر وصاحب إستراتيجية يهدف من خلالها إلى إنقاذ أمته والأمم المتخلفة من الانحطاط والضياع، ويدفعها نحو التحضر الذي يتحقق متى تحققت شروطه في كل الظروف والأحوال.

يُعدّ "مالك بن نبي" ممن تأملوا ودرسوا وانتقدوا تاريخ الأمة العربية والإسلامية وأوضاعها الحديثة والمعاصرة، وجدّدوا أمر فكرها وفلسفتها، بما دعا إليه من تجديد للتصور الإسلامي دينيا وفكريا وسياسيا واجتماعيا واقتصاديا، اقترن اسمه بالحضارة وبمشكلاتها وبنظرية الحضارة وبإستراتيجية البناء الحضاري، أسهم في فلسفة الحضارة وفي فلسفة التاريخ وفي العلوم الإنسانية المعاصرة برمتها، ومنطلقه في ذلك الدين والفكرة الدينية، لم تشغله منتجات الحضارة الأوربية المعاصرة المغرية الفكرية والمادية عن البحث والاجتهاد، فهو صاحب كتاب "الظاهرة القرآنية" عرض فيه تفسيره العلمي للقرآن الكريم، أكدّ فيه الولاء للإسلام والانتماء للعلم في وجه الأفكار والتيارات العلمانية الجارفة، الأمر الذي جعل الشباب المسلم يقف محتارا بين الهداية والضلال، بين الاستقامة والانحراف في الفكر والمعتقد والسلوك.

جعل "مالك بن نبي" العقل الطاقة البشرية الكامنة المتحركة والمتحررة والمنتجة في عالم الأفكار وفي عالم الأشياء، في عالم الثقافة وفي عالم الحضارة، وهي طاقة متفجرة باستمرار ودوما بالفهوم والإبداعات والعطاءات، وهو ما انتهى إليه أصحاب كل حضارة من الحضارات التي عرفها تاريخ الإنسانية، ومنهم مؤسسو الحضارة الإسلامية الذين تأثروا وأربوا وأبدعوا وأثروا فتحضروا لما أخذوا بأسباب التحضر وهي المهمة والرسالة والأمانة الملقاة على عاتق المسلم المعاصر.

تعكس فلسفة "مالك بن نبي" في تعاطيها مع الدين والثقافة والعلم والسياسة والتاريخ والحضارة عامة تفتح عقل عربي إسلامي المعاصر على هموم ومشكلات عصره، وعلى قضايا الثقافة والحضارة والأصالة والمعاصرة والثبات والتغير، وهي مشكلات الأمة وقضايا الإنسانية جمعاء، عقل همّه الأكبر ومشكلته العويصة محاربة التخلف والانحطاط، والأخذ بأسباب التحضر والتقدم والبناء الحضاري، عقل مبدع صاحب دين وفكرة دينية، وصاحب علم ونظرية علمية، وصاحب تقنية وصاحب فكر وفلسفة، عقل يعتبره بعض المفكرين المعاصرين همزة وصل بين النهضة والصحوة في سياق تاريخي جمع بين الماضي والحاضر والمستقبل، صاحب نسق فكري متكامل في التعاطي مع مشكلات الحضارة دينيا وفكريا وثقافيا وعلميا واجتماعيا وماديا واقتصاديا.

ما أحوج العالم العربي والإسلامي إلى مشروع فكري نُهُوضي حضاري يضع بين يدي الأمة إستراتيجية البناء الحضاري التي تمكنه من بلوغ السمو الروحي، ومن ميلاد حضارة تلد منتجاتها الفكرية والمادية، وتضمن التوازن بين المثال والواقع، بين المادة والروح، بين الدين والدولة، ذلك هو عين التحضر وقمّته، وهو مبتغى الإسلام ومقصده، فالحضارة الحقّة هي التمكين لقيّم ومبادئ الإسلام على أرض الله.

1ـ نبذة عن حياة مالك بن نبي:

ولد مالك بن نبي "مالك بن الحاج عمر بن الخضري بن مصطفى ابن نبي" بمدينة قسنطينة، في 01 جانفي 1905م، نشأ في مدينة تبسة التي رحلت إليها أسرته لظروف سياسية استعمارية. وبعد تلقّيه التعليم الابتدائي والثانوي بوطن نشأته سافر إلى باريس سنة 1930م، حيث التحق بالجامعة وأتمّ دراسته بها وتخرج مهندسا كهربائيا.

تعرّف "مالك بن نبي" بفرنسا على عدد كبير من الشبان العرب وشارك في تأسيس مركز لتوحيد الصف بين طلبة شمال إفريقيا، لكن الدوائر الاستعمارية لم تغفل عن هذا النشاط فحاربته وعملت على القضاء عليه، تزوج عام 1931م بفتاة فرنسية أسلمت وسمّت نفسها خديجة.

كان "مالك بن نبي" من ألمع الطلبة في دفعته، لم يهتم بمجال تخصصه العلمي فحسب بل درس الفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ، كما كان ميّالا إلى الثقافة العربية الإسلامية التي بدأت عنده مع "الشيخ عبد المجيد" الذي أخذ عنه دروسا كثيرة في النحو والصرف والدين، وقرأ العديد من الصحف والكتب في ميادين شتى من العلم المعرفة.

لقد تأثر "مالك بن نبي" في تكوينه الفكري والثقافي والعلمي بكتابات ودراسات رواد التجديد والنهضة قبله مثل كتاب "الفشل الأخلاقي للسياسة الغربية في الشرق" "لأحمد خان" وكتاب "رسالة التوحيد" "للشيخ محمد عبده" وكتاب "أم القرى" "لعبد الرحمن الكواكبي"، كما أثار اهتمامه وشدّه الفكر الإصلاحي لدى الشيخ "عبد الحميد بن باديس" ولدى دعاة الإصلاح في بلده الجزائر وفي بلاد المغرب العربي الإسلامي، كل هذا كشف له وبوضوح عن فكر يسعى إلى التجديد والنهضة والإصلاح، على الرغم من التباين بين معطياته في المنطلقات والأساليب والتوجهات، ولم تستثن قراءات "مالك بن نبي" الأدب العربي القديم والحديث وألوانا من الأدب الفرنسي والغربي عامة، ليصبح متمتعا بمكانة فكرية وأدبية ولغوية معتبرة مكنته من التاليف والكتابة باللّغتين العربية والفرنسية معا.

روى "مالك بن نبي" قصة حياته طفلا وطالبا في كتابه "مذكرات شاهد القرن" في جزأين، فتحدث عن أسرته وزملائه في المدرسة وصوّر ظلم الاستعمار وقسوته على الشعب الجزائري، وما أحدثه من تغيير في البيئة الاجتماعية الجزائرية، ودخول العديد من العادات الفاسدة، وغياب الكثير من القيّم والتقاليد الفاضلة من المجتمع الجزائري، ذلك ما دفع العديد من الجزائريين إلى مغادرة وطنهم والتفكير في أساليب ووسائل الانتفاضة على الاستعمار الفرنسي.

إنّ المتاعب التي عاشها "مالك بن نبي" قبيل الثورة الجزائرية ازدادت بعد اندلاع الثورة المجيدة في الفاتح من نوفمبر 1954م، حيث فكر في مغادرة فرنسا إلى الجزائر للمشاركة في تحرير الوطن من ربقة الاستعمار. وفي سنة 1956م اتجه إلى الشرق وأدّى فريضة الحج واستقر بعدها في مصر وأخذ يعقد حلقات جمعت فيها العديد من الشبان المسلمين الذين انكبّوا على الإصغاء إليه ومناقشته، فزاده ذلك إيمانا بقضيته والتزاما برسالته، فأخذ يؤلف ويترجم ويدرس، إلى أن عاد إلى الجزائر بعد الاستقلال.

عاد "مالك بن نبي" إلى الجزائر بعد أن قضى وقتا طويلا من حياته في الغربة، وزار عدة بلدان في العالم الإسلامي والأوروبي، ليبدأ عمله الفكري في الترجمة والتأليف وليواصل تنظيم ندواته الثقافية في الجزائر المستقلة سياسيا، المتخمة بأسباب ومظاهر التخلف والتأخر في عالم بلغ فيه الأوروبي والأمريكي درجة كبيرة من التقدم والازدهار في العلم والتكنولوجيا، وفي وسائل العمل والسيطرة على الطبيعة وتنظيم المجتمع.

كان صاحب قضية ونضال وفكر، ارتبط ببلده الجزائر كنموذج للبلدان المستعمرة، وكمثال للتخلف، ليقوم بدراسة تحليلية معمّقة لواقع الشعوب المستعمرة المتخلفة ولينظر في عوامل الحضارة وشروط النهضة وليبدع ويؤلف، وتتمحور كافة كتاباته حول مشكلات الحضارة. له عدة مؤلفات منها:"شروط النهضة"، "مشكلة الثقافة"، "الظاهرة القرآنية"، "وجهة العالم الإسلامي" و"المسلم في عالم الاقتصاد"... الخ، هذه الكتب وكتب

أخرى قدّمها جميعا في إطار سلسلة واحدة أطلق عليها اسم "مشكلات الحضارة" وكان بعضها باللّغة الفرنسية وبعضها الآخر باللّغة العربية.

لقد تميّزت شخصية "مالك بن نبي" على حد وصف أحد طلابه المقربين "بفكر حاد وذهن نفاذ يعاني ويفكر، ففكره فكر حي، فعّال، مركز، تغلب عليه الصور العقلية، لا الصور اللّفظية فيما يتكلم وفيما يكتب".[1]

توفي رحمه الله في يوم الأربعاء 04 من شوال 1393هـ، الموافق لـ31 أكتوبر عام 1973م، تاركا خلفه حياة مليئة بالنضال السياسي والفكري، ودعوة قويّة إلى الحضارة وإلى النهضة وإلى التجديد الحضاري، فهو لم يمت بل بقي حيّا في تاريخ الجزائر وفي حياة أمتها المجيدة التي تمجد أبطالها ورموزها إلى الأبد.

2ـ أحوال العالم الإسلامي أيام مالك ابن نبي:

إنّ العصر الذي عاش فيه "مالك بن نبي" تميّز بتفاوت ملحوظ بين العالم الأوروبي المتقدم والعالم الإسلامي المتخلف في مجال العلوم والتكنولوجيا والسياسة والاجتماع وغيرها، هذه الظروف دفعت المفكرين إلى التفكير في الذات والدعوة إلى العودة إليها من خلال مصادر الإسلام الأصلية وقيّمه الجوهرية وتعاليمه الفاضلة. وهي الظروف التي جعلت "مالك بن نبي" يتنكر للتخلف والانحطاط بتفكير عميق وتحليل مفصل ونقد بنّاء لظروف العالم الإسلامي المتخلف والدعوة إلى الأخذ بأساليب وشروط النهضة والتجديد وبناء الحضارة، فسلسل جميع كتاباته تحت عنوان "مشكلات الحضارة" .

فالأزمة التي غرق فيها المسلمون وغيرهم من الشعوب المتخلفة في العالم وأساليب العمل المُستعملة من قبل الأمم المتقدمة لأجل تكريس انحطاط الشعوب المقهورة والسيطرة عليها أكثر، وتجلّى ذلك في أشكال الاستعمار المُمارسة التي انتهت بالاستعمار العسكري الذي ينطوي على كل نعوت الاستغلال والسيطرة والتسلط والظلم، فصارت القوة العلمية

---

[1] عمار طالبي: مالك بن نبي والحضارة في مجلة الثقافة، العدد 18، 1973

والتكنولوجية تُسخر للتوسع والهيمنة في أرض ما وعلى حساب شعب ما، يُهجر ويُقتل وثرواته تُنهب وتُسلب.

كانت الحياة الاجتماعية متدهورة، وكانت الشعوب الإسلامية تعاني من قسوة الاستعمار واستبداد الحكام، فلم تكن هناك حركة علمية وتجديد، وغرق المسلمون في مناقشة الجزئيات والعناية بالزخرف اللفظي، فانتهى ذلك بالثقافة الإسلامية إلى الوقوع في مجال التقليد والتبعية من دون نقد أو فحص أو تمحيص. فلا المراكز الإسلامية أصبحت تنهل من الينابيع الأصلية للإسلام، فتغذي بذلك العقل والقلب والروح، بل اكتفت بما في كتب الفقه القديمة، ولا المراكز العلمية استطاعت أن تتخلص من ربقة التقليد وتتحرر لتجدد في أساليب البحث ومناهج الدراسة، وتنكب على الاتصال بالعالم المتقدم لتطلع على التجديد وتكيّفه مع مالها من تراث ديني وثقافي فكري زاخر.

في خضم هذه الأوضاع الصعبة جاء عدد من المفكرين الذين تصدّوا للتخلف والانحطاط ورفعوا شعار الحرية والتحرر من الاستعمار، منهم "جمال الدين الأفغاني" و"محمد عبده" و"عبد الرحمان الكواكبي" و"عبد الحميد بن باديس" وغيرهم، وهذا "محمد إقبال" في كتابه "تجديد التفكير الديني" يقف في فصل "مبدأ الحركة في بناء الإسلام" على عوامل انحطاط المسلمين وهي تاريخية تعود إلى العصر الأموي والعصر العباسي، فالخلافات الفكرية والسياسية التي قامت بين المفكرين اتسعت لتشمل عامة المسلمين، كان لها أثرها السلبي الملموس من الناحية السياسية والاجتماعية، حيث أغرقت المسلمين في فتن واضطرابات لم تسمح للأمة الإسلامية بالاستمرار في التوسع والازدهار، بل أدت بها إلى الانحطاط الديني والاجتماعي، ومن مظاهر الخلاف السياسي والديني ما وقع خلال وبعد الفتنة الكبرى، واستمر الصراع والتخلف والتشتت والضعف والتشرذم في جميع المجالات حتى أيامنا هذه، كما شكّل الخلاف الفكري بين أهل الرأي "المعتزلة" وأهل السنة حول مسائل عديدة في العصر العباسي الذي شهد ثلاث رؤى في الإسلام هي: رؤية عقلية تضع العقل سلطانا على البحث في مسائل الدين "المعتزلة"، ورؤية تجمع بين

الدين ولإيمان وترفض التأويل "الأشاعرة"، وأخرى تقوم على التاويل الباطني وتقوم بطريقة الكشف والمشاهدة "الصوفية"، كل هذا طبع الحياة الفكرية الإسلامية في العصر العباسي وبعده.

اشتد الصراع السياسي بين أهل السنة والشيعة في العصر العباسي، وتوزع المجتمع الإسلامي على ثلاث مراتب اجتماعية، حكام وجند وعامة وهو تقسيم غريب على الإسلام وتعاليمه الداعية إلى ضمان العدالة والمساواة بين أفراد المجتمع، انتهى الحكم العباسي بسقوط بغداد على يد "هولاكو" قائد التتار عام 1258م، وقائد المغول الذي ألحق الدمار والخراب بالمدينة وبمعالم الحضارة فيها، وكان ذلك نكبة وكارثة على الإسلام ومستقبله.

لم يكتف التتار بتخريب مركز الحضارة الإسلامية بغداد بل زحف نحو الشام، وفي مثل هذا الانحلال السياسي ركّز العلماء جهودهم في المحافظة على النظام الاجتماعي لحياة المسلمين، فلم يقبلوا الجديد وتمسكوا بمدارس الفقه القديمة، فأصبح التقليد قاعدة تقف أمام الاجتهاد والإبداع، ونتج عن ذلك طغيان التأمل ونوع من التفكير النظري على حساب العمل الاجتماعي ولم تؤد صيحات "ابن تيمية" إلى التطور الملموس للفكر الإسلامي، خاصة لما قام العلماء بدراسة القرآن على ضوء الفلسفة اليونانية على الرغم من الطابع المميز لهذا من ذاك. وتسرب الزهد والتصوف نتيجة التأثر بالأفلاطونية والأفلاطونية المحدثة ومال العديد من المسلمين إلى ذلك بسبب الفساد، والعزوف عن الدين الذي شهدته حياتهم.

بقي الأمر على هذا الحال حتى بداية القرن التاسع عشر، وهو عصر الحضارة الغربية القائمة على التقدم العلمي والتقني، وعصر انقسم فيه سكان المعمورة إلى عالم متقدم يتمتع بالرفاهية والازدهار وينعم بالخيرات، وعالم متخلف يعاني الفقر والجهل والتمزق السياسي والانحلال الاجتماعي والعالم الإسلامي جزء منه، أخذ المثقف الإسلامي يسأل عن سر تخلف العالم الإسلامي وأسباب تقدم غيره، وكيف لهم للوصول إلى الحضارة مع المحافظة على التراث الأصالة والمعاصرة- لكن عزلة العالم الإسلامي وانشغاله بالحروب والصراعات والفتن الداخلية وعدم اتصاله باوروبا منعه من

الإطلاع على العلوم والفنون والصنائع هناك، ذلك الذي منع المفكرين والمثقفين من التأثير والتغيير، "لقد أغلقت على العالم الإسلامي الأبواب منذ الحروب الصليبية، وأخذ يأكل بعضه بعضا وقف المسلمون في علمهم، فليس إلا ترديد بعض الكتب الفقهية والنحوية والصرفية ونحوها وفي صناعتهم، فلا اختراع ولا إتقان للقديم وفي آلاتهم وفنونهم العسكرية فهي على خط الأقدمين".[2]

يعرض "أحمد أمين" في كتابه "زعماء الإصلاح في العصر الحديث" شهادة أحد السواح الفرنسيين زار مصر في آخر القرن الثامن عشر يقول: "إن الجهل في هذه البلاد عام وشامل مثلها في ذلك مثل سائر البلاد التركية، يشمل الجهل كل طبقاتها ويتجلى في كل جوانبها الثقافية، من أدب وعلم وفن، والصناعات في أبسط حالاتها، حتى إذا فسدت ساعتك لم تجد من يصلحها إلا أن يكون أجنبيا".[3]

إنّ الضعف الذي شاهده العالم الإسلامي والتخلف على مستوى الفكر والدين والمعرفة رافقته نزاعات سياسية وصراعات حزبية كثيرة، "والسياسة فيها نزاع مستمر بين الأمراء، وكل أمير له حزبه، وكل حزب يتربص الدائرة بخصمه، والبلاد ضائعة بينهم والوالي لا يطيل المكث إلا ريثما يغتني، حتى أصبح اسم الحكومة والوالي والجندي مرعبا، مفزعا، مقرونا في النفس بمعنى الظلم والتعسف".[4]

استفحل الجهل وانتشر و"فقد الدين روحه، وصار شعائر ظاهرية، لا تمس القلب ولا تحيي الروح وسادت الخرافات وانتشرت الأوهام، وأصبح التصوف ألعابا بهلوانية، والدين مظاهر شكلية ... هذا هو الحال في الشرق، أما الغرب فلم يكن قد أصيب بكوارث الشرق".[5]

---

[2] احمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص 7.

[3] المرجع السابق: ص 6.

[4] المرجع السابق: ص 8-9.

[5] المرجع السابق: ص 8.

بدأت أوروبا تنهض منذ الحروب الصليبية وتؤسس لحضارة راقية، أساسها العلم والتحرر، تطورت الصناعة وكثرت الاختراعات واتسع نطاقها، فامتلكت قوة عظمى، "حتى إذا شعرت بقوتها هجمت على الشرق بآلاتها وأسلحتها واختراعاتها، فتساقطت أقطاره في يدها، وكانت إذا دخلت قطرا ضغطت عليه بكل قوتها، واستغلته لمصالحها، وأجرت فيه الأمور على هواها."[6]

إنّ الظروف التي آل إليها العالم الإسلامي من جراء الاستعمار وممارساته في المجالات الفكرية والسياسية والاجتماعية والثقافية والضغط المتزايد فجّر وعيا في صفوف العديد من المثقفين، تصدّرها العديد من المصلحين الذين "يشعرون بآلام شعوبهم أكثر مما تشعر، ويدركون الأخطار المحيطة بها أكثر مما تدرك ويفكرون التفكير العميق في أسباب الداء ووصف الدواء".[7]

كان كل مصلح ينظر إلى الإصلاح من جانبه الخاص، ويدعوا إلى التجديد والتغيير في قطره حسب ثقافته ومحيطه ذلك ما عرّض الكثير منهم لتهم عديدة مثل الزندقة والإلحاد والثورة على الحكم والعبث بالنظام والخروج عن التقاليد، وأمثال هؤلاء "محمد بن عبد الوهاب"، "جمال الدين الأفغاني"، "محمد عبده"، "عبد الحميد ابن باديس" و"محمد إقبال" و"مالك ابن نبي"، هؤلاء لهم الحق في أن نحي سيرتهم ونخلد ذكرهم وندرس آثارهم، لأن أيّة نهضة لأيّة أمة لها روادها وشروطها ومتغيراتها، فالشروط ملك الناس جميعا، أما المتغيرات فهي خاصة بالبيئة التي تعرف النهضة والتجديد، والإبداع في مجال الحضارة مرهون بالإطلاع على ما للغير في الماضي والحاضر من نهضات يسجلها التاريخ ويحفظها الزمن لتكون مصباحا ينير الدروب أمام الساعي إلى التجديد والتغيير في ما ينفع الإنسان، كانت هي عوامل قيام هذا البحث حول فكرة التجديد الحضاري عند "مالك بن نبي".

---

[6] المرجع السابق: ص 9.

[7] المرجع السابق: ص 9.

3ـ الحركة الإصلاحية في العصر الحديث وموقف مالك بن نبي منها:

لقد تعرّض العالم الإسلامي منذ الحروب الصليبية إلى العدوان المسلح من قبل أوروبا، وفشلها في السيطرة عليه بالقوة جعلها تتخذ سبلا أخرى تهدف إلى السيطرة على الشعوب الإسلامية بشكل يحقق النفوذ السياسي عليها، وفي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين استطاعت أوروبا أن تحتل كافة البلدان الإسلامية التي شهدت حملات التبشير والاستغلال والاستعمار، ناهيك عن التخلف والضعف والانحطاط الذي كانت عليه من قبل، وهي ظواهر عمل الاستعمار على إبقائها بروح من الكراهية والحقد.

حرص الاستعمار على إقحام العديد من المفاهيم والتصورات الخاطئة في الإسلام ليجنب المسلمين التمسك بدينهم في مبادئه الصحيحة السمحة، لأنه هو قوتهم ومصدر عزتهم فعمل "على إضعاف المسلمين وزعزعت ثقتهم في إسلامهم أولا وبالذات، حتى يفقدوا مصدر القوة، ثم يتمكن من تثبيت أقدامه في الأرض الإسلامية."[8]

لقد نجح الاستعمار وهو يسعى إلى تحقيق أغراضه في استخدام بعض الحركات التي قامت بقبول سلطة المستعمر، وقيام العديد من المستشرقين بإظهار الخلافات وتأكيد النقائص الفكرية والمذهبية بين جماعات المسلمين وشعوبهم، مع تزييف الكثير من مبادئ الإسلام وتعاليمه وقيّمه وانعكس ذلك بوضوح في ظهور أصوات المثقفين التي نادت بإتباع الغرب فيما بلغه "من فكر طبيعي وإنتاج مادي، والابتعاد عن سبيل الأصالة والتميّز وأبرز مثال على ذلك حركتا أحمد خان وميرزا غلام أحمد".[9]

في مقابل التيار المسالم للاستعمار والداعي إلى قبوله والمؤيد للعيش معه والانغماس في ظروف حياته برز تيار معادي حرص كل الحرص على محاربة الاستعمار وفضح جرائمه البشعة في حق الشعوب والدين والوطن،

---

[8] محمد عبد السلام الجفائري: مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي، ص 20-21.

[9] محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص 37.

تيار يدافع عن الإسلام والمسلمين ويكشف عن التزييف والتحريف الصادر من داخل العالم الإسلامي والقادم من خارجه، مؤمن كل الإيمان برسالته، ملتزم بدعوته إلى ضرورة الإصلاح والتجديد في إطار مبادئ وتعاليم الإسلام الصحيحة، فلم تستطع الدوائر الاستعمارية الانفراد بالتوجيه في البلاد الإسلامية، وكان عدد من المفكرين والعلماء المصلحين الذين اضطلعوا بهذه المهمة الشاقة تصدّرهم "جمال الدين الأفغاني"، و"محمد عبده"، و"عبد الرحمن الكواكبي" و"محمد رشيد رضا"، و"محمد إقبال"، و"عبد الحميد ابن باديس" وآخرون، لعبوا أدوارا كبيرة في إرساء أسس الإصلاح والنهضة والتجديد، فشهد العالم الإسلامي نهضة إسلامية حقيقية في العصر الحديث.

إنّ الحركة الإصلاحية والنهضة الإسلامية التي برزت بقوة بفعل مجهود "جمال الدين الأفغاني" ومن جاء بعده أفرزت اتجاها انتهج أسلوب مقاومة الاستعمار ومحاربته في جميع مظاهره الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ودعا إلى الجمع بين الأصالة والإبداع في غير تعارض أي الأصالة والتجديد في إطار المبادئ الإسلامية. فكانت مهمة الاستعمار صعبة رغم كثرة وتنوع الوسائل الإجرامية المستعملة والأساليب المتبعة لتثبيت كيانه عسكريا وسياسيا وفكريا وثقافيا.

من الطبيعي أن يحارب الاستعمار كل حركة أو عمل فردي أو جماعي يسعى للنيل منه، فهو مقبل وباستمرار على زرع روح اليأس والوهن لدى الشعوب المستعمرة، لكنه وجد مقاومة مستميتة وعنيفة من قبل تيار آمن أصحابه بالإسلام وبالرسالة الإسلامية وتنكروا لجميع الأفكار التي تكرس الاستغلال وتقضي على الذات الإسلامية والتاريخ الإسلامي وتراث المسلمين، ورفضوا مساكنة العدو ومماثلته والعيش معه بعادات وتقاليد وقيّم دخيلة على حياتهم لا تنسجم مع ما آمنوا به، فتعرضت الصيحات المؤيدة للاستعمار لانتقادات حادة فانتُقدت حركة "أحمد خان" ودعوة "ميرزا غلام احمد" وانتقدت أساليب المستشرقين وراح النقاد يصنعون المناهج والأساليب لشرح الإسلام وتقوية المسلمين.

نجد كل تلك الانتقادات والشروح والمناهج في كتابات العديد من زعماء الإصلاح والتجديد مثل كتابات، "جمال الدين الأفغاني" في "العروة الوثقى" وكتاب "الرد على الدهرين" وكتاب "تجديد التفكير الديني في الإسلام" "محمد إقبال"، وكتب "محمد عبده" وكتابات "محمد رشيد رضا" وغيره .

إنّ ظهور حركة الإصلاح الديني والاجتماعي ارتبط بأوضاع المسلمين في العصر الحديث، ولما كانت الأوضاع الاجتماعية والدينية والسياسية واحدة شملت فكرة التجديد والنهضة سائر البلاد العربية والإسلامية، ومن الطبيعي أن البلاد المستعمرة يطمح مفكروها إلى التحرر من ربقة الاستعمار، فكان هذا الطموح خلف كافة الإبداعات في مجال الفكر والأدب، ووراء كل مشروع سياسي ووراء كل حديث عن الثورة والسيادة والاستقلال، إلا أن النهضة أو الثورة أو التحرر كل هذا ارتبط بحالات عاطفية نحو هموم الواقع المعاش، فأنجبت الأزمة الشعور الطبيعي بالخطر فتحرك الوعي وتحركت معه الدعوة إلى التجديد والإصلاح.

لقد انطلق الفكر الإصلاحي الديني والاجتماعي مع "محمد بن عبد الوهاب" في القرن الثامن عشر الميلادي، الذي تأثر بفكر كل من "الحنابلة" و"ابن تيميه" وابن القيم" ومدرسة السلف، تأسست "الحركة الوهابية" وانتشرت في المغرب وقامت على الدعوة إلى الرجوع بالإسلام إلى عهده الأول القائم على التوحيد مع ضرورة تخليص تعاليم الإسلام من الشوائب التي أدت إلى تدهور أوضاع المسلمين، فسيطر على كيانهم الركود والجمود، فكانوا عرضة للاستعمار الذي كان يعيش حالة يسودها التقدم العلمي والتقني والاستقرار الاجتماعي .

ظهر في اليمن "محمد بن علي التوكاني"، وفي العراق كل من "شهاب الدين محمود" المتوفى سنة 1852م و"محمود شكري" المتوفى سنة 1944م، وفي تونس "محمد علي التونس المتوفى سنة 1859م، ورفاعة الطهطاوي المتوفى سنة 1873م، وظهرت البهائية في إيران والمهدية في السودان التي دعت إلى الجهاد، وكل هذه الحركات أجمعت على العودة بالدين إلى عهده الأول، وحثت

المسلمين على أن يشربوا من النبع الصافي لهذا الدين لتعود لهم حريتهم وكرامتهم وهيبتهم ويسترجعون مجدهم السابق في الحضارة والعلم والتقدم والازدهار .

يكاد يتفق الباحثون في تاريخ الفكر الإسلامي الحديث على أنّ أول من بعث اليقظة في العالم الإسلامي من سباته بحق هو "جمال الدين الأفغاني" وزرع في أبنائه روح الثورة ودعا إلى إصلاح النفوس والعقول وحارب الجهل والخرافات والدجل، استطاع الرجل بشخصيته القوية أن يؤثر في نفوس العديد من الشغوفين بالتجديد والتغيير في البلاد الإسلامية وعلى رأسهم "محمد عبده" و"محمود سامي البارودي" و"سعد زغلول" وغيرهم من أهل العلم والفكر والأدب والسياسة والدين .

كان "جمال الدين الأفغاني" يدعو إلى الوحدة والتحرير وينبذ الظلم والاستكانة للاستعمار، اختلف مع بعض المصلحين الذين سابقوه وآخرين عاصروه في منطلق الإصلاح، أهي العقيدة أم الحكم والإدارة أم النفس والعقل؟. "لئن كان محمد بن عبد الوهاب يرمي لإصلاح العقيدة، ومدحت باشا يرمي إلى إصلاح الحكومة والإدارة، فالسيد جمال الدين الأفغاني يرمي إلى إصلاح العقول والنفوس أولا ثم إصلاح الحكومة ثانيا وربط ذلك بالدين".[10]

بعد وفاة "جمال الدين الأفغاني" سنة 1897م جاء دور تلميذه "محمد عبده" الذي حمل مشعل الإصلاح والتغيير، واتخذ لنفسه طريق أستاذه، إذ شغله حال التربية والتعليم فثار في وجه الإتباع والتقليد، ودعا إلى تحرير الفكر والعلم والتربية والتعليم من ذلك، كما دعا إلى إصلاح اللغة العربية مما هي عليه من وهن وضعف وعدم القدرة على الاستيعاب والتطور والتجديد.

صار "للشيخ محمد عبده" أتباع وتلاميذ يرددون ما يقول ويدافعون عن منهجه في الإصلاح وعن الغايات التي يصبوا إليها، استطاع أن يفهم الإسلام، ويعي الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية المعقدة في العالم

---

[10] أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص 59.

الإسلامي، ويجمع بين الجديد والقديم - الأصالة والمعاصرة- فكتابه "رسالة التوحيد" وكتاباته في "العروة الوثقى" التي أسسها مع أستاذه "جمال الدين الأفغاني" تكشف بحق عن مستوى الإصلاح ودرجة التجديد اللذين بلغهما "الشيخ محمد عبده" حيث جمع بين النشاط الديني والسياسي وبين الحرية والقدر، واعتبر العقل فضلا إلهيا لا تعارض بينه وبين الدين.

لم يتفق "الشيخ محمد عبده" مع معاصريه في العديد من المسائل، وكانت له مواقف رائدة، فهو يرى أن علم الكلام ليس وسيلة كافية للتأسيس للعقيدة والدفاع عنها، فمنهج القرآن عنده هو الطريق الأصلح لعرض مبادئ وتعاليم الإسلام، لأنه يقوم على الفطرة ويراعي الإقناع، كما دعا إلى التحرر من التبعية المذهبية، وينبذ التعصب ويقرّ بالاجتهاد لمن هو مؤهل لذلك، إن السبيل الذي سلكه ليس إثارة الحماس وشحن العواطف والدفع إلى الاندفاع والمغالبة بل هو طريق يهتم بالتربية والتعليم والتثقيف والتوجيه، وكان يدعوا إلى النهضة ومقاومة الاستعمار، توفي رحمه الله سنة 1905م.

أخذ "عبد الرحمن الكواكبي" على عاتقه كغيره من المصلحين مهمة الإصلاح والتجديد التي شغلت معاصريه، هذه المهمة التي دعت إليها ظاهرة الضعف والتخلف والصور التي شهدها العالم الإسلامي، لذا وجب تحديد المرض وتشخيصه والبحث عن طرق وأساليب العلاج "الدواء" هو ما عمل لأجله "عبد الرحمن الكواكبي" في كتابه "أم القرى" انتقد السياسات والحكومات كما انتقد الأمة في كتابيه "أم القرى" و"طبائع الاستبداد".

إنّ ظاهرة الضعف في العالم الإسلامي كما يراها "عبد الرحمن الكواكبي" كامنة في الدين، مثل التحجر والإعراض عن العمل، وفي السياسة كغياب الحرية في الفعل والرأي وفي الحياة الأخلاقية والاجتماعية كالجهل والبؤس والحرمان، دعا لمحاربة الاستبداد والطغيان وإصلاح الراعي والرعية وتخليص الإسلام من البدع والخرافات، دعا إلى الثورة والتغيير وضرورة العودة إلى مشارب الإسلام الصافية، فالنهضة لا تقوم والاستقلال لا يتحقق بدون ذلك، توفي سنة 1902.

من النماذج الأصلية التي كان لها وزن كبير في الفعل النهضوي الإصلاحي في الجزائر وخارج الجزائر "عبد الحميد ابن باديس"الذي يمثل رائد الحركة الإصلاحية في الجزائر خاصة وفي العالم العربي والإسلامي بوجه عام، تصدى للاستعمار الفرنسي بالمواجهة في أكثر من جبهة، عوّل كثيرا على تربية النشء وإعداده وتثقيفه ليشرب من النبع الصافي للإسلام من خلال الكتاب والسنة وما تركه السلف الصالح، فصنع جيلا كانت له الريادة في المحافظة على الأصالة في الأمة الجزائرية لتثور ضد الاستعمار وعملائه، ودعا إلى النهضة التي تقوم على التربية والعلم، مع ضرورة إصلاح التعليم، "ومحاربة الجمود والأوضاع المزرية، وبهذا المنهج يمكن ترقية المسلم الجزائري في حدود إسلاميته التي هي حدود الكمال الإنساني، وحدود جزائريته التي بها يكون عضوا حيّا عاملا في خلق العمران البشري، وحدود عربيته التي تمنحه مع الجزائرية والإسلامية الشخصية التاريخية الثقافية المميزة".[11]

آمن "عبد الحميد ابن باديس" إيمانا قويا بأن الإصلاح الصحيح يبدأ بالتربية الصالحة التي تصنع إنسانا صالحا يأخذ على عاتقه مهمة المحافظة على ما أنجزه الأولون، ويعمل على الوصول إلى الإبداع، كما أن الإصلاح عملية تقتضي التغيير في داخل الفرد وينعكس ذلك على السلوك، ثم يظهر التغيير في العلاقات وسائر النشاطات الاجتماعية، فتغيّر المجتمع نحو الأفضل مرهون بتغيّر فكر وسلوك الفرد نحو الأفضل، وإصلاح النفوس والأعمال شرط إصلاح الأوضاع داخل المجتمع، "على أن يتجه الإصلاح إلى إصلاح العقائد أولا وإصلاح الأخلاق ثانيا لتقويم النفس وبناء الفضائل، إذ أن الباطن أساس الظاهر وأن منطلق النهضة هو الإسلام الذاتي الذي يقوم على الفكر والنظر والإدراك المميز بين الحسن والقبيح والحق والباطل وأن الطريق إلى الإسلام الذاتي هو التعليم، تعليم الأفراد والجماعات، البنين والبنات، الرجال والنساء".[12]

---

[11] عمار طالبي: آثار ابن باديس، ص 62.

[12] المرجع السابق: ص 240 242.

تأثر "عبد الحميد ابن باديس" بزعماء الإصلاح والنهضة في العصر الحديث مثل "جمال الدين الأفغاني" و"محمد عبده"، وتأثر بالأوضاع السياسية والاجتماعية والتاريخية للجزائر، أسس "جمعية العلماء المسلمين" التي عملت على تمييز الهوية الجزائرية عن الذات الفرنسية أو الذات المتفرنسة، ورفع شعار التغيير الذي تنظمنه وتدعو إليه الآية الكريمة: ﴿إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾.[13] رافضا الانغلاق والتقوقع في الذات من جهة والانغماس والاندماج في الثقافة الفرنسية من جهة ثانية، وسارت حركة الإصلاح والنهضة في الجزائر في هذا الاتجاه الذي كان له دور كبير في بعث الروح الوطنية والشعور بالمسؤولية ورفع التحدي أمام القوة الاستعمارية فكانت المعركة وتحقيق الاستقلال.

إنّ الدعوة إلى الإصلاح مرتبطة بالظروف التاريخية التي عرفها العالم العربي والإسلامي، فمحاولة "مصطفى كمال أتاتورك" فصل الدين عن الدولة وعن السياسة في سنة 1924م وإلغاء الخلافة الإسلامية في تركيا وتأثير ذلك العالم الإسلامي عرّضه إلى تطاحن فكري بين التيار المحافظ وتيار التجديد.

إنّ التيار المحافظ بزعامة "محمد رشيد رضا" المتوفى سنة 1953م و"شكيب أرسلان" المتوفى سنة 1946م و"حسن ألبنا" المتوفى سنة 1949م دعا إلى تجاوز التقليد وإلى الجمع بين الدين والعلوم الطبيعية وإلى تعلم اللغات الأجنبية وإصلاح نظم التربية والتعليم بما ينسجم مع القيّم والتقاليد الموروثة، لأن الاستسلام للحضارة الغربية لا يجلب سوى الشقاء والاضطراب وضياع الذات والتمكين للاستعمار. أما تيار التجديد الذي هو نتيجة فعل وتأثير التقدم العلمي متمثلا في آراء عديدة لدعاة كثيرين أمثال: "قاسم أمين" المتوفى سنة 1908م الذي دعا إلى بناء المجتمعات العربية الإسلامية على علوم العصر ونتائجها وإلى تحرير الأفراد من الجهل خاصة المرأة. و"أحمد لطفي السيد" الذي دعا إلى عزل الدين عن السياسة وقال باستحالة إقامة

---

[١١] قرآن كريم: سورة الرعد، الآية 11.

قومية على مبادئ الإسلام و"علي عبد الرازق" المتوفى سنة 1966م الذي طالب بفصل الدين عن الدولة في كتابه "الإسلام وأصول الحكم"، وأشاد بحركة "مصطفى كمال أتاتورك"، ثم جاء "الأديب طه حسين" الذي فُتن بالمدنية الغربية ودعا إليها، واتسع نطاق الحركة الإصلاحية ليشمل بلاد المغرب العربي و"عند عبد الحميد ابن باديس" في الجزائر المتوفى سنة 1940م وعند الفاسي في المغرب المتوفى سنة 1972م.

إنّ الطابع الشمولي الذي اتسمت به الحركة الإصلاحية الحديثة في العالم الإسلامي جعلها تتخطى حدود الجزائر أو مصر أو الهند لتشمل العالم الإسلامي أجمع خاصة وأنّ المشرق العربي ومغربه كان تحت وطأة الاستعمار الاوروبي الذي حمل معه معالم حضارية تتضمن عناصر هوية المستعمر واساليبه الرامية إلى طمس معالم الشخصية الإسلامية والعربية من خلال حملات تبشيرية وسياسية وثقافية، تصدى لها زعماء الإصلاح في الغرب والشرق، فكان "لمالك بن نبي" دور ريادي في رفع التحدي والالتزام بالرسالة والنهوض بالمسؤولية في التأسيس للإصلاح والتجديد والنهضة والثورة، لاجل بناء جيل قويّ بالإيمان والأخلاق والعلم وثابت على مبادئ الوحدة والهوية والتاريخ، تأثر كغيره بالفكر الإصلاحي الحديث في العالم الإسلامي، فالم به واستوعبه وقال فيه رأيه.

من كبار المصلحين في المشرق الإسلامي "محمد إقبال" المتوفى سنة 1938م الذي تمسك بقوة بفكرة العودة إلى الذات وإعادة بناء التفكير الديني، وقام "محمد إقبال" بدراسة تحليلية تقييمية للحركات الإصلاحية الحديثة التي شهدها العالم الإسلامي فيعتبر "ابن تيميه" من كبار المصلحين الذين فتحوا باب الاجتهاد، كما قارن بين وضع المسلمين ووضع أوروبا الديني البروتستاني، كما درس الإصلاح في العالم الإسلامي وفي أوروبا، استنتج أن معظم المحاولات الإصلاحية في العالم العربي والإسلامي لم تبلغ درجة النظرية ولم تصل إلى مستوى النسق الفلسفي ذي الطابع الشمولي، ذلك ما دفع "محمد إقبال" إلى تبني مشروع التجديد والإصلاح وحرص على تطبيقه وألّف لهذا الغرض

كتابا بعنوان "تجديد التفكير الديني في الإسلام"، وقال في منهجه الإصلاحي: "إني حاولت أن أعيد بناء الفلسفة الإسلامية معتمدا على التراث الفلسفي في الإسلام وعلى أحدث التطورات في مختلف ميادين المعرفة الإنسانية".[14]

انتقد "محمد إقبال" دعاة التجديد في الشرق، إذ يقول فيهم: "إني يائس من زعماء التجديد في الشرق فقد حضروا في نادي الشرق بأكواب فارغة، بصناعة مزجاة في الفكر والعلم، إنّ البحث عن برق جديد في هذا السحاب عبث وإضاعة للوقت فقد تجرد هذا السحاب الجهام عن البرق القديم فضلل عن البرق الجديد".[15]

انتقد بشدة "محمد إقبال" ما دعا إليه "مصطفى كمال أتاتورك" معتبرا إياه غير مفيد للعالم الإسلامي وكان مفيدا لأوروبا من قبل، ويقول في هذا الموضوع: "إننا نرحب من أعماق قلوبنا بتحرير الفكر في الإسلام الحديث، ولكن ينبغي أن نقرر أيضا أن لحظة ظهور الأفكار الحرّة في الإسلام هي أدق اللحظات في تاريخه، فحرية الفكر من شأنها أن تنزع إلى أن تكون من عوامل الانحلال... أضف إلى هذا أن زعماء الإصلاح في الدين والسياسة قد يتجاوزون في تحمسهم لتحرير الفكر الحدود الصحيحة للإصلاح، إذا انعدم ما يكبح جماح حميتهم الفتية".[16]

لم يكن فقط في الجزائر "عبد الحميد ابن باديس" من حمل راية الإصلاح ودعا إلى التجديد بل ترك جيلا التزم بالرسالة والمسؤولية، ولازال يناضل ويؤثر، ولاشك أن مفكرا "كمالك بن نبي" قد تأثر بالفكر الإصلاحي في الجزائر وفي كل قطر من أقطار العالم العربي والإسلامي، خاصة وأنّ الظروف التي شهدتها حياته، هي واحدة ومتماثلة إلى حد بعيد لدى أبناء الأمة العربية والإسلامية فكريا وسياسيا واجتماعيا، وهي ظروف مليئة بالتخلف والانحطاط والانعزال، اهتم مالك بشدّة بقضايا أمته، والصعوبات

---

[14] محمد إقبال: تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 4.

[15] المرجع السابق: ص 88.

[16] المرجع السابق: ص 187.

التي تواجهها في سبيل النهوض من جديد، فدفعته تلك إلى تحليل الواقع وتقصى التاريخ وبمنهج علمي استلهمه من انتماءه الديني ومن تكوينه العلمي والتقني، وأبدى آرائه ومواقفه في كتابات عديدة وضعها جميعا في سلسلة مشكلة النهضة ومشكلات الحضارة.

من الموضوعات التي شغلت بال "مالك بن نبي" الفكر الإصلاحي الديني والاجتماعي الذي شهده العالم العربي والإسلامي، والمصائب التي حلّت به، فدرسه وحلله، فهو يرى أن الدعوة إلى النهضة والإصلاح والتجديد التي شغلت بال المصلحين المحدثين تعالج موضوعات كثيرة مثل "الاستعمار والجهل هنا، والفقر والبؤس هناك، وانعدام التنظيم، واختلال الاقتصاد أو السياسة في مناسبة أخرى، ولكن ليس فيها تحليل منهجي للمرض، أعني دراسة مرضية للمجتمع الإسلامي، بحيث لا تدع مجالا للظن حول المرض الذي يتألم منه منذ قرون".[17]

إنّ الرأي الشخصي أو المزاج أو المهنة حسب "مالك بن نبي" معطيات لا تسمح بإقامة الموضوعية في التحليل والتصور والتفسير، فكل مصلح وصف الوضع وحلله تبعا لمعطى ذاتي معين، "فرأي رجل سياسي كجمال الدين الأفغاني: أن المشكلة سياسية تحل بوسائل سياسية، بينما رأي رجل دين كالشيخ محمد عبده أن المشكلة لا تحل إلا بإصلاح العقيدة والوعظ ...الخ على حين أن كل هذا التشخيص لا يتناول في الحقيقة المرض بل يتحدث عن أعراضه".[18]

سلسل مالك بن نبي جميع كتاباته بالفرنسية والعربية تحت عنوان مشكلات الحضارة، وكان حريصا على تحديد الوضعيات وطرح المشكلات بدقة وتحليل الوقائع باستخدام المنهج العلمي والصرامة المنطقية، ركز على الحضارة وقدم نظريته فيها مستخدما أوضاع العالم المتخلف بصفة عامة وظروف العالم العربي والإسلامي بصفة خاصة، انتقل بفكر متميز له

---

[17] مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 58.

[18] المرجع السابق: ص 58.

خصوصياته المنهجية والعلمية ونجح أينما نجاح في تشخيص الداء وتحديد الدواء لشعوب مريضة بالتخلف والضياع ولا نجد سوى الحضارة والتجديد الحضاري لتتجاوز محنتها.

4ـ نظرية الحضارة عند مالك بن نبي:

أ- مفهوم الحضارة:

- الحضارة في اللّغة الفرنسية .Civilisation
- الحضارة في اللّغة الإنجليزية .Civilization

الحضارة في اللّغة العربية تعني الإقامة في الحضر، بخلاف البداوة التي تعني الإقامة في البوادي.

قال القطامي: "ومن تكن الحضارة أعجبته فأي رجال بادية ترانا".[19]

ومع أن استعمال هذا اللفظ قديم، فإن أول من أطلقه على معنى قريب من معناه هو "عبد الرحمن ابن خلدون"، فميّز بين العمران البدوي والعمران الحضري، وجعل أجيال البدو والحضر طبيعية في الوجود، فالبداوة أصل الحضارة، والبدو أقدم من الحضر،لأنهم يقتصرون على ممارسة الزراعة والقيام على تربية الحيوان لتحصيل ما هو ضروري لمعاشهم، أما الحضر فإن اشتغالهم بالصناعة والتجارة جعل مكسبهم أكثر من مكسب أهل البدو وأحوالهم في المعاش زائدة على الضروري منه، وإذا كانت البداوة أصل الحضارة وسابقة عليها، فإنّ الحضارة غاية البداوة ونهاية العمران.

للحضارة عند المحدثين معنيان، أحدهما موضوعي مشخّص والآخر ذاتي مجرد، أما المعنى الموضوعي فهو إطلاق لفظ الحضارة على جملة من مظاهر التقدم الأدبي والفني والعلمي والتقني التي تنتقل من جيل إلى في مجتمع واحد أو عدة مجتمعات متماثلة، فتقول الحضارة الهندية، والحضارة

---

[19] نقلا عن جميل صليبا: المعجم الفلسفي، الجزء الأول، ص 475.

العربية، والحضارة الاوروبية، وهي بهذا المدلول متفاوتة فيما بينها، ولكل حضارة نطاقها وطبقاتها ولغاتها.

فنطاق الحضارة هو حدودها الجغرافية، وطبقاتها هي آثارها المتراكمة بعضها فوق بعض في مجتمع واحد أو عدة مجتمعات، ولغاتها هي الأداة الصالحة للتعبير عن الأفكار السياسية والاقتصادية والتاريخية والعلمية والفلسفية.

أما الحضارة بالمعنى الذاتي المجرد فتطلق على مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني المقابلة لمرحلة التوحش والهمجية، أو تطلق على الصورة الغائية التي تستند إليها في الحكم على صفات كل فرد أو جماعة، فإذا كان الفرد متصفا بالخلال الحميدة المطابقة لتلك الصورة الغائية قلنا أنه متحضر، وكذلك الجماعات فإن تحضرها متفاوت بحسب قربها من هذه الصورة الغائية أو بعدها عنها، ومع أن الصورة الغائية للحضارات مختلفة باختلاف الزمان والمكان، فإن اختلافها لا يمنع اشتراكها في عناصر واحدة.

تتشكل العناصر المشتركة بين الحضارات في عصرنا من التقدم العلمي والتقني، وانتشار أسباب الرفاهة المادية وعقلانية التنظيم الاجتماعي، والميل إلى القيّم الروحية والفضائل الأخلاقية، فالكلام عن الحضارة بهذا المعنى لا يخلوا من التقدير والتقويم من خلال رد الحضارة إلى القيّم العليا المتصورة في الأذهان، ويدل هذا المثل على اتجاهها إلى الاشتراك في عناصر مشابهة لسرعة انتقال الأفكار من إقليم حضاري إلى آخر.

الحضارة بمعنى آخر مرادفة للثقافة لكن اللّفظين لا يدلان على مدلول واحد لدى العلماء، فبعضهم يطلق لفظ ثقافة على تنمية العقل والفكر والذوق، والبعض الآخر يطلقه على نتيجة هذه التنمية، أي على مجموع عناصر الحياة ومظاهرها وأشكالها في مجتمع من المجتمعات.

كذلك يطلق لفظ الحضارة على اكتساب الخلال الحميدة، وقد يطلق اللفظ على نتيجة هذا الاكتساب أي على حالة من التقدم والازدهار في حياة المجتمع بكاملها، وإذا كنا نجد من يطلق لفظ الحضارة على بعض المظاهر

المادية، ولفظ الثقافة على المظاهر العقلية والأدبية فإن البعض يرى عكس ذلك.

يدل لفظ الثقافة لدى الأنثروبولوجيين "علماء الثقافة والإنسان" على مظاهر الحياة في كل مجتمع متخلفا كان أو متقدما، على حين أن لفظ الحضارة عندهم يدل على الحياة في المجتمعات المتقدمة وحدها .

لتحديد معنى كل من الثقافة والحضارة، إطلاق كلمة الثقافة على مظاهر التقدم الفكري وهي ذات طابع فردي، وإطلاق لفظ الحضارة على مظاهر التقدم الفكري والمادي معا، وهي ذات طابع اجتماعي.

بعد ما تعرّضنا لمعاني الحضارة كما هي في القواميس اللّغوية والفكرية نتعرض لمعناها في فكر "مالك بن نبي"، هذا الفكر الذي تجلّى في كتابات وبحوث جاءت كلها في إطار سلسلة فكرية وثقافية عنوانها: مشكلات الحضارة، الأمر الذي يدل على الحيز الكبير الذي تشغله الحضارة كموضوع بحث ودراسة لدى المفكر وفي حياته الفكرية، إذ تمكن من تحليل الموضوع بكثير من العناية والدقة والعمق والاجتهاد إلى درجة الإبداع والتجديد فوضع نظرية في الحضارة هذا ما نقف عليه فيما بعد.

لقد ربط "مالك بن نبي" الحضارة بالإنسان عامة كفرد ومجتمع معا، الإنسان الذاتي النفسي والإنسان الموضوعي الاجتماعي وربطها بالعلاقات بين الاثنين في إطار تاريخي يراعي معطيات الماضي وتفاصيل الحاضر وأبعاد المستقبل، هذا ما نجده في معظم كتاباته وكتبه ومحاضراته مثل كتاب "شروط النهضة"، وكتاب "مشكلة الثقافة" وكتاب "بين الرشاد والتيه" وكتاب "وجهة العالم الإسلامي" وغيره.

لا يهمنا معنى الحضارة اللّغوي أو معناها عند الفلاسفة والأنثروبولوجيين، والذي تميّز بالتعدد والاختلاف، بل يهمنا معناها عند "مالك بن نبي" في إطار فكره الذي تميّز بطابعه العلمي وبأسلوبه في التحليل الذي تميّز بالدقة العلمية والصرامة المنطقية، وهذا ما نكتشفه من خلال عرض معنى الحضارة في هذا المطلب، ومعنى الثقافة في صلتها بالحضارة كما نرى في مطلب آخر.

في علم الإنسان "الأنثروبولوجيا" تمثل "الحضارة كل شكل من أشكال التنظيم للحياة البشرية".[20] ففي أي مجتمع من المجتمعات نامي أو متخلف، يوجد نوع من الحضارة وهو تصور يعتبره "مالك بن ني" عاما ولا يهمه في فكره وفلسفته لأنه المعنى الذي يريده هو المرتبط بشعوب غارقة في مصاعب التخلف والضعف، إذ يستوي التحضر مع التخلف في البلاد المستعمرة والقابلة للاستعمار حسب المعنى الأنثروبولوجي للحضارة.

ينبغي بناء معنى الحضارة بوجود عالم كادح يعاني التخلف والقابلية للاستعمار وعالم متقدم محتل، وبالتركيز على مصطلح التخلف ومصطلح النمو، فالتخلف يعني الانحطاط والتدهور في ظروف الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية الفكرية، أما النمو فيمثل التقدم والازدهار في جميع جوانب الحياة فكريا وعلميا واجتماعيا وسياسيا واقتصاديا.

ففي هذه النظرية يحدد مفهوم الحضارة خاصة "بالنسبة إلى النمو الذي يشمل داخل إطراده جميع هذه الوقائع، والذي أصبحنا اليوم نحدد عن طريق المقابلة معه بمجموع المشاكل التي نشير إليها بكلمة التخلف".[21]

فالحضارة تبعا لظروف العالم المتخلف وسمات العالم المتقدم هي الأداة التي تعطي للمجتمع النّامي المالك لقدرات اقتصادية "إرادة استخدام هذه القدرة في حل المشاكل وخاصة المشاكل التي تواجه المجتمع المتخلف كما أن الحضارة هي التي تشكل هذه القدرة وهذه الإرادة اللتين لا تقبلان الانفصال عن وظيفة المجتمع النّامي".[22]

فالحضارة هي شرط إيجاد الإرادة والقدرة على تجاوز التخلف، "فهي مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده، في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذلك من أطوار نموه".[23]

---

[20]– مالك بن نبي: آفاق جزائرية، ص 30–31.

[21]– المرجع السابق: ص 44.

[22]– المرجع السابق: ص 16.

[23]– المرجع السابق: ص 16–17.

إنّ الحضارة ليست كل نمط من أنماط التنظيم للحياة الإنسانية لاي مجتمع كان، إنّها "شكل نوعي خاص بالمجتمعات النامية، بحيث يجد هذا الشكل نوعيته في استعداد هذه المجتمعات لأداء وظيفة معينة".[24]

إنّ الحضارة ليست مجرد تكديس لمنتجات فكرية ومادية، إنّها قدرة على البناء والخلق والإبداع، ضمن محيط له شروط وعوامل، وفي إطار منهج يحدد نقطة الانطلاق ونقطة الوصول كما يرسم بوضوح الطريق ويحدد الوسائل والأهداف ضمن رؤية شاملة وواضحة تتميز بالدقة والعمق.

إنّ انتهاج أسلوب التكديس لغرض التحضر يغرق المجتمع في الشيئية والتبعية بعيدا عن التحضر والاستقلال، فالحضارة هي التي تلد منتجاتها لا العكس، وقدرة الإنسان على بلوغ الحضارة حضور الإرادة التي تلازم جوهر الحضارة، وتتكون القدرة شيئا فشيئا من خلال القيم التي آمن بها المجتمع والأهداف التي اعتنقها، ضمن منظور واعي ينبذ العفوية والفوضى والارتجال ويتخذ الدقة والعمق والعلم والمنطق أسسا له.

إنّ مفهوم الحضارة عند "مالك بن نبي" الذي يشمل جميع جوانب المشكلة التي هي مشكلة الحضارة في حياة الإنسان، تعني بالدرجة الأولى ناتج انسجام وتكامل الجهود الإنسانية مع قوانين الآفاق والتطلعات، وجملة الشروط النفسية والاجتماعية والروحية الدينية والمادية، من أجل النمو والازدهار في الجوانب الفكرية والروحية والسلوكية والاقتصادية والاجتماعية والمادية في الواقع المعاش.

جاء مفهوم الحضارة عند "مالك بن نبي" بعد مناقشات طويلة وتعاليق كثيرة لفلاسفة الحضارة وعلى رأسهم "توينبي" وغيره من فلاسفة الحضارة والتاريخ في العصر الحديث والمعاصر وتوصل بعد الدراسة والبحث والتعمق إلى نظرية مفادها أن الحضارة وعي لا انبهار وتكيّف لا تبعية وإبداع لا استيراد، وبناء لا تكديس، تصنعها ظروف ومعطيات كثيرة تتداخل وتنسجم فيما بينها، "فهي عملية بناء صعبة تتطلب أساسا فكريا معينا

---

[24] المرجع السابق: ص 96.

وجهودا في عالمي الأشخاص والأشياء، ولكن ذلك لا يتم إلا في صورة برنامج تربوي يهدف لتغيير الإنسان من الداخل وفق شروط معينة، حتى يتمكن من أداء وظيفته الاجتماعية ويحقق البناء في المجتمع المتحضر".[25]

فالحضارة بحسب المعطيات المذكورة سابقا ليست مجرد أفكار ومعارف تظهر لدى فرد أو مجموعة من الأفراد داخل المجتمع، ولا هي مجرد منتجات صناعية تباع وتشترى، بل هي فاعلية بشرية تتم بتوفير جملة من العوامل والشروط التقنية والاجتماعية والروحية والمادية، وبتوفر الإرادة والقدرة على إبداع المعرفة وإنتاج الأشياء، واستغلال ذلك لخدمة الإنسان وضمان راحته، ولتمييز الحضارة الحقيقية عن الحضارة المزيفة المشبوهة، فالأولى تصنع منتجاتها الفكرية والثقافية والمادية، أما الثانية فتكتفي باستيراد منتجاتها الفكرية والثقافية والمادية وتستثني كليا في هذا الحساب ظاهرة التعاون والتفاعل والتواصل بين الحضارات الإنسانية.

ب- الحضارة والتاريخ:

لقد قام الكثير من الفلاسفة والمفكرين بمحاولات عديدة لتفسير التاريخ وكان معظم المؤرخين يكتفون بتجميع الذكريات التاريخية بدل تحليلها وتفسيرها عقليا، ومن المفكرين الأوائل الذين اهتموا بدراستهم الوقائع التاريخية بمنهجية ذات أسس علمية ومنطقية، "ابن خلدون" الذي "استطاع قبل غيره أن يكشف منطق التاريخ في مجرى أحداثه، فكان بهذا المؤرخ الأول الذي اهتم بالبحث عن هذا المنطق، إذا لم نقل أنه قد قام بصياغته فعلا فقد كان يمكن أن يكون أول من أتيح له أن يصوغ قانون الدورة التاريخية لولا أن مصطلح عصره فقد وقف به عند ناتج معين من منتوجات الحضارة ويعني به - الدولة – وليس عند الحضارة نفسها".[26]

إذا كان "ابن خلدون" قد تعرّض لنشأة الدولة وتطورها في الزمان والمكان، ووضع نظرية في ذلك، فإن ذلك لا يبطل الدور الذي لعبه في

---

[25] محمد عبد السلام الجفائري: مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي، ص 125.

[26] مالك بن [illegible]، ص 93.

التمكين لظهور "فلسفة التاريخ" التي تقوم بنقد وتحليل وتفسير الحوادث التاريخية، وتقديم المنهج القادر على التحقق من التاريخ والوقوف على أسباب منع هذا التحقق، فهو استطاع أن يحدث طفرة وقفزة نوعية منهجية وفكرية في البحوث التاريخية، من بحوث اقتصرت على الجمع والنقل والحفظ والاستظهار وبحوث تستعمل النقد والتمحيص والتحليل والتفسير، فالتاريخ عنده "محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت يُفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات، لأنّ الأخبار إذا اعتمدت فيها على مجرد النقل ولم تُحكم أُصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها على الشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق".[27]

رغم الدور الذي لعبه "ابن خلدون" في التأسيس لفلسفة التاريخ، فإن "مالك بن نبي" يؤكد أن القرن التاسع عشر هو الذي ظهر فيه تفسير الوقائع الاجتماعية في إطار ظاهرة الحضارة و"كارل ماركس" من هؤلاء الذين تبنّوا هذا التفسير، ووجد في أوروبا آنذاك المبرر للدفاع عن نزعته المادية التاريخية التي تقوم على معطيات منطق الجدلية المادية التي تذهب إلى أن كل بناء تاريخي حضاري يشترط ازدهار البنية التحتية بعناصرها الأساسية المتمثلة في الإنتاج ووسائل الإنتاج وعلاقات الإنتاج، وما البنية الفوقية إلا مظاهر تعكس مدى التطور والتحول في الحياة الاقتصادية. والثغرة الكبيرة في "فلسفة التاريخ" حسب "مالك بن نبي" هي "ثغرة أحدثها التحليل المفرط في المنهجية لهذه الوقائع، ذلك التحليل الذي يتخذ نقطة انطلاق، من حتمية مادية أي من عملية ميكانيكية لا إرادية لتخطيط الحضارة".[28]

شهد القرن العشرون مناهج متعددة في "فلسفة التاريخ" والحضارة، ردت الحضارة والبناء التاريخي إلى عوامل لا تستقر على الإنتاج ووسائل

---

27. عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، ص17.

28. مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 94-95.

الإنتاج وعلاقات الإنتاج مثلما هو الحال في النظرية الماركسية بل إلى عوامل أخرى. من هؤلاء المفكر الفرنسي "جيزو" وبعده "كيسرلنج" اللّذان ردّا تكوين الحضارة في التاريخ إلى عوامل دينية تمثل تركيبا مصدره الروحي المسيحية، وبعدهما "سبنجلر" "Spangler" الذي أرجع تكوين الحضارة إلى عبقريات خاصة ومتميزة موسومة بسمات ذاتية خاصة ليست من نصيب الجميع، ومثل هذا التفسير حسب "مالك بن نبي" يقود إلى العنصرية، وهي "العامل الذي سوف يتاح لدوره التاريخي فيما بعد أن يحقق اكتماله المنهجي في المدرسة الهتلرية على يد روزنبرج".[29] وجاء بعده "شينجلر" و"ولترشوبرت" "Walter Schubert" الذي وضع حركة التاريخ وتكوين الحضارة بين يدي عبقرية عصر بكامله لا بين يدي عبقرية فردية أو جنسية كما ذهب "شبنجلر" في كتابه "أوروبا وروح الشرق"، فلكل عصر روحه الكلي وعبقريته الخاصة، وهذه الأخيرة هي التي تصنف "حضارة هذا العصر أو ذاك بسمة خاصة".[30]

جاء بعد ذلك المفكر الإنجليزي "جون أرنولد تويني" بتفسير التاريخ يرد الحضارة إلى عوامل يلعب فيها العامل الجغرافي الدور الأساسي، ويربط الحضارة بعنصر التحدّي، فهي ردود أفعال فكرية ومادية معينة تقوم بها الشعوب والأجناس لمواجهة تحديات معينة، والظروف الطبيعية الجغرافية هي التي تمارس هذه التحديات وتنتهي هذه الاستجابات الحضارية بالتقدم نحو الأمام أو التوقف أو الاندثار.

أكّد "مالك بن نبي" أن الحضارة الإسلامية مثلا وحضارات أخرى ذات أصل ديني لم يكن للعامل الجغرافي الدور الأساسي في تكوينها، ولا حتى للعامل الاقتصادي ولا حتى نظرية "الروح الكلي" "تستطيع بدورها تفسير الظاهرة الإسلامية مع الظروف النفسية الزمنية التي رافقتها كما سبق لي أن أوضحت ذلك في كتابي الظاهرة القرآنية".[31]

---

[29]- المرجع السابق: ص 95-96.

[30]- المرجع السابق: ص 96.

[31]- المرجع السابق: ص 98.

تأخذ ظاهرة الحركة التاريخية مواقف عدة وتفسيرات شتى اطّلع عليها "مالك بن نبي" بعمق ودقة وانتقدها مبرزا مواقفه منها واحدة واحدة ثم أعطى موقفه المبني على الإطلاع والتحليل والنقد والاستنتاج، مستخدما الدقة العلمية والصرامة المنطقية.

قرّر "مالك بن نبي" ما ذهب إليه علم الاجتماع من اعتبار التاريخ بحوثا ودراسات مجالها إما الفرد نفسه، وكل ما يؤثر في حياته ويغيّر من ظروفه وميزاته الإنسانية، وإما المحيط الذي يعيش فيه الفرد، أي كل ما يؤثر على المجتمع ويغيّر من خصائصه، "والتاريخ على أية حال ليس سوى هذا التغيير الذي تتعرض له "الذات" والمجال الذي يحويها على السواء".[32]

وبعبارة أكثر دقة "إنّ صناعة التاريخ تتم تبعا لتأثير طوائف اجتماعية ثلاثة: تأثير عالم الأشخاص، تأثير عالم الأفكار، وتأثير عالم الأشياء".[33]

إنّ الفعل التاريخي من إنتاج العوالم الثلاثة، متفقة لا متفرقة "لا يمكن أن يتم عمل تاريخي إذا لم تتوفر صلات ضرورية داخل هذه العوامل الثلاثة لتربط أجزائها في نطاقها الخاص وبين هذه العوامل لتشكل كيانها العام من أجل عمل مشترك".[34] وتتضح صلة الحضارة بالتاريخ عند "مالك بن نبي" اعتباره أن المجتمع ليس مجرد عدد من الأفراد بل هو اجتماع هؤلاء الأفراد على موقف واحد واشتراكهم في إتجاه واحد للقيام بعمل معين ذو غاية معينة، وعمل المجتمع ليس تلقائيا إنّما تركيب بين هذه العوالم الثلاثة الذي يُفضي إلى عالم رابع يتمثل في مجموع العلاقات الاجتماعية الضرورية أو ما يسمى بشبكة العلاقات الاجتماعية.

إذا كانت وحدة العمل التاريخي ضرورة قصوى للبناء الاجتماعي وتكوين الحضارة، وإذا كانت الحضارة في أي مجتمع هي عمل تاريخي وتأليف بين العوامل الثلاثة ينتج في صورة وحدة بينها وبين الغاية منها توافق هذه الوحدة، "هي التي تتجسم في صورة حضارة".[35]

---

[32] المرجع السابق: ص 98.

[33] مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص 23.

[34] المرجع السابق: ص 24.

[35] المرجع السابق: ص 24.

يمكن دراسة الحركة التاريخية بالقياس إلى الفرد لكونه عنصرا سيكولوجيا زمنيا في بناء الحضارة لكن عند "مالك بن ني" "الحضارة تُعد مظهرا من مظاهر الحياة والفكر الجماعي، من هذا الجانب يعتبر التاريخ دراسة اجتماعية، إذا يكون دراسة لشرائط نمو مجتمع معين لا يقوم نموه على حقائق الجنس أو عوامل السياسة، بقدر ما يخضع لخصائصه الأخلاقية والجمالية والصناعية المتوفرة في رقعة تلك الحضارة".[36]

توجد عدة عوامل تتحكم في بناء المجتمع وحركة التاريخ وتكوين الحضارة، وهي عوامل تاريخية، هذا من جانب، ومن جانب آخر تطور المجتمع مرتبط ببعض العلاقات الضرورية مع غيره من المجتمعات الأخرى، باعتبار المجتمع ليس في منأى عن المحيط الإنساني، فالعوامل الداخلية والخارجية المسئولة عن حركة التاريخ في مجتمع ما، بعضها تمثله السببية التاريخية وبعضها تمثله الميتافيزيقية التاريخية التي تلم "بالظواهر في غايتها، هذا الجانب الميتافيزيقي يضم الأسباب التي لا تدخل ضمن ما أطلق عليه توييني «مجال الدراسة لحضارة ما".[37]

إنّ الطابع الشمولي أو الكوني الميتافيزيقي في تفسير التاريخ مصدره عوامل بعيدة لا تقتصر على الجانب الاجتماعي والتاريخي، وهو جانب متصل بمجموعة من الأسباب بل ترتبط بغاية تؤكد حقيقته في التاريخ هي "دورة الحضارة".[38] وكل دورة تتحدد بشروط وعوامل زمنية لمجتمع معين، وتنتقل إلى جهات أخرى فتمتزج قيمها بغيرها وتستمر العملية إلى ما لا نهاية.

استوحى "مالك بن ني" حقيقة "دورة الحضارة" من نظرية "ابن خلدون" عن الأجيال الثلاثة، وإن اختفى عمق الفكرة لضحالة وضيق المصطلحات، ونظرية "ابن خلدون" سمحت "لمالك بن ني" بالوقوف على عوامل الانحطاط إلى جانب دواعي التقدم والازدهار، وإذا كان التعارض بين

---

[36]- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 21.

[37]- المرجع السابق: ص 21.

[38] المرجع السابق: ص 23.

اسباب الفناء وعوامل الحياة في أي مجال بيولوجي، ففي المجال الاجتماعي "فإن هذه الحتمية محدودة بل مشروطة، لأن اتجاه التطور وأجله يخضعان لعوامل نفسية زمنية يمكن للمجتمع المنظم أن يعمل في نطاقها حين يعدل حياته ويسعى نحو غايته في صورة متجانسة منسجمة".[39]

إنّ للتاريخ دورة، فهو يسجل انحطاط الأمة، كما يدون حضارتها، ومعرفة عوامل الانحطاط ودواعي التقدم تمكن من الإمساك بشروط النهضة أو السقوط في الحياة، وللتاريخ نقطة انطلاق وأخرى للوصول، ينبغي التحكم فيما بينها نظريا وعمليا من خلال التحكم في الشروط التاريخية التقنية والاجتماعية والعوامل الكونية الميتافيزيقية لتأسيس حضارة أصيلة وقوية.

بمقدار تعدد الحضارات عبر التاريخ تتعدد الدورات التاريخية أو الدورات الحضارية لذلك لا ينبغي إغفال مكانة الأمة في دورات التاريخ، أي الاكتفاء بوضع حلول ومناهج مستوردة أو عفوية وارتجالية لمشاكلها، بل العمل على ضمان التوافق بين المناهج والحلول مع ما تستدعيه النقطة التي تكون فيها الأمة داخل الدورة، وفي هذا يقول "مالك بن نبي": "وعلاج أي مشكلة يرتبط بعوامل زمنية نفسية، ناتجة عن فكرة معينة تؤرخ منذ ميلادها عمليات التطور الاجتماعي في حدود الدورة التي ندرسها".[40]

قدّم "مالك بن نبي" تفسيرا للتاريخ بعد دراسة تحليلية نقدية لاتجاهات المفكرين الذين سبقوه في هذا المجال، وكان يربط ذلك دوما بالعالم الإسلامي وبمصادر الفكر الإسلامي فوجد قاعدة التكوين التاريخي وأساس البناء الحضاري في الآية القرآنية الكريمة ﴿إِنّ اللهَ لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.[41] ويؤكد على عدم الاكتفاء بالإيمان بما توجبه الآية فقط إنما إثبات صحة القاعدة في ضوء التاريخ.

---

[39] المرجع السابق: ص 24.

[40] مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 70.

[41] قرآن كريم: سورة الرعد، الآية 11.

إنّ نقطة الانطلاق في الحركة التاريخية أو الدورة الحضارية ليس العلم والعلماء أو الصناعة والفن وهي علامات الازدهار، وإنّما القاعدة التي تكون الأساس لإقلاع الحضارة، ورأس المال الأمة الاجتماعي في نقطة انطلاقها نحو الرقي، وذلك لا يتمّ إلا بالعناصر المادية الثلاثة: الإنسان، التراب، والوقت، مع وجود عامل يمزج بين العناصر الثلاثة هو الدين، فتحصل مطابقة التاريخ للمبدأ الديني.

يتفق "مالك بن نبي" مع "كسرلنج" و"سبنجلر" في أن ظاهرة التغيير والتحوّل في التاريخ والانتقال من الانحطاط إلى الحضارة تعود إلى تغيير الأنفس، ويستشهد بالحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية، فكل واحدة منها قامت على الإيمان والشعور والقوي بالحاجة إلى التغيير"، ويتعلق الأمر بحالة خاصة وشروط خلقية ونفسية لازمة للإنسان لكي يستطيع أن ينشئ ويبلغ حضارة ولكن أليست هذه الشروط هي نفس ما أشار إليه القرآن من تغيير النفس الذي جعل أساس كل تغيير اجتماعي".[42]

نستنتج مما سبق أن "فلسفة التاريخ" عند "مالك بن نبي" أخذت من الفلسفات السابقة وتأثرت بها، واختلفت معها في عدة جوانب، ومجال التاريخ في هذه الفلسفة هو الفرد والمجتمع وكل ما يحيط بهما، فهو يسجل ذلك ويحدد عوامل الضعف والانحطاط وشروط القوة والازدهار لمجتمع معين في مرحلة معينة، كما يقوم بحفظ ذلك ونقله إلى جهات أخرى، وللتاريخ دورة وللحضارة دورة، فلهما نقطة إنطلاق ونقطة وصول.

تنطلق الحركة التاريخية أو الدورة الحضارية من قاعدة مقررة في القرآن ومؤكدة في العديد من البحوث والدراسات هي تغيير النفس أولا وابتداء، عملا بقوله تعالى: ﴿إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾.[43] فالعقل التاريخي الحضاري داخل المجتمع يتحرك من المبدأ المقرر في الآية الكريمة وتبعا لتأثير عالم الأشخاص وعالم الأفكار وعالم الأشياء منسجمة

---

[42]- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 84-85.

[43]- قرآن كريم: سورة الرعد، الآية 11.

متفقة فيما بينها لا منفصلة وغير متشتتة، وتبعا لعوامل زمنية اجتماعية، وأخرى كونية ميتافيزيقية، بها يحصل التكتل وتتحقق الوحدة بين المنطلق والأسباب والغايات في الفكر والسلوك، هذه الوحدة تجمع وتؤلف عناصرها البعيدة والقريبة، والشرارة الروحية الدينية هي التي تجمع عناصر الحضارة الأولية: الإنسان والتراب والوقت، هذه الوحدة هي التي تتشخّص وتتجسد في صورة حضارة تمثل دورة صنعتها حركة التاريخ، التاريخ الذي يدرسها في مجال الفرد والمجتمع ويسجل مفاخرها وآثارها ويحفظ هذه الأخيرة من الزوال وينقلها إلى الآخرين، فأي حضارة تقوم بفعل التاريخ وفي حقبة زمنية ما.

ج- الحضارة والثقافة:

لا نستطيع أحيانا التمييز بين مصطلح الثقافة ومصطلح الحضارة في الاستعمال الحديث في اللّغة العربية، فهما مترادفان، لكن يوجد ما يفصل بينهما على أساس أن الثقافة تمثل الجانب المعنوي والحضارة تمثل الجانب المادي داخل المجتمع.

إذا انطلقنا من المعنى اللّغوي للكلمتين نجد أن الثقافة إنتاج معرفي وعقلي، أما الحضارة فتتكون في المدن، لكن تبقى العلاقة بين الثقافة والحضارة حسب "ابن خلدون" علاقة تلازم فهو يقول: "إن حضارة أي مجتمع أو ثقافته إنما تتمثل في القيّم والمعاني والتنظيم التي تنطوي عليها حياته".[44] ويظهر هذا التلازم في كون حضارة أي أمة عبر التاريخ هي التطبيق المادي والاجتماعي للتراث الثقافي، وهي من إنتاج هذا التراث في المحيط الذي نما وازدهر فيه.

نجد لفظة الثقافة تدل على معنى الحضارة في اللغة الألمانية، فالثقافة أو الحضارة ذات دلالتين: ذاتية وهي ثقافة العقل، وموضوعيه وهي سائر العادات والظروف الاجتماعية والتراث الفكري والعلمي والفنون والآداب

---

[44] عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، ص 1124.

والوان التفكير والقيّم الرائعة في مجتمع معين، "أو هو طريقة حياة الناس وكل ما يملكونه ويتداولونه اجتماعيا لا بيولوجيا".[45]

ليس الغرض هنا الوقوف على المعنى اللغوي لكلمة ثقافة أو لفظة حضارة والبحث في تطور المفهوم عبر التاريخ إنّما الوقوف على صلة الثقافة بالحضارة في فلسفة "مالك بن نبي". إذا مدرسة الغرب تعتبر الثقافة والحضارة ثمرة الفكر فإن المدرسة الماركسية تعتبرهما من إنتاج المجتمع، لكن "مالك بن نبي" لا يقتصر على المعنى الفكري النظري للثقافة بل يتناول المعنى في إطار الأوضاع التي عبّر بها العالم أجمع من جهة والعالم الإسلامي المعاصر من جهة أخرى، فهو يراعي بدرجة كبيرة الجوانب والمعطيات العملية والاجتماعية والتربوية والتاريخية، إذ انطلق مما وضع الباحثين في تباين بين نظراتهم، حيث يوجد من نظر إليها من الناحية النفسية الفردية وهناك من نظر إليها من الجانب الاجتماعي فوقف هو على الجوانب الثلاثة: الجانب النفسي والجانب الاجتماعي وجانب الصلة بين الفرد المجتمع، فاعتبر القضية قضية إنسان بشكل عام، وتجاوز في ذلك التفسير الأحادي الجانب بنظرته شمولية.

يربط "مالك بن نبي" مفهوم الحضارة بالثقافة من حيث مفهومها ووظيفتها الاجتماعية والتاريخية فثقافة عنده هي "علاقة متبادلة، هي العلاقة التي تحدد السلوك الاجتماعي لدى الفرد بأسلوب الحياة في المجتمع، كما تحدد أسلوب الحياة بسلوك الفرد".[46] إنّ التبادل يتمّ بين جانبين متصلين هما الفرد والمجتمع وهذا ما يمثل الجانب النفسي والجانب الاجتماعي في الثقافة، وإن كان بعض المفكرين يعتبرون الثقافة قضية فرد فقط وبعضهم الآخر يعتبرونها قضية مجتمع فحسب.

إنّ العلاقة المتبادلة تنمو لدى الفرد وتكبر من خلال صلته بالمحيط الحيوي وحياته النفسية وفاعليته الاجتماعية، هذه الصلة تنبعث في

---

[45]- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ص 379.

[46]- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 57.

الأساس من رغبة الفرد في غريزة الحياة في الجماعة في تكوين وحدة اجتماعية تاريخية، "والتي تتيح له تكوين القبيلة والعشيرة والمدينة والأمة، والقبائل الموغلة في البداوة تستخدم هذه الغريزة لكي تجتمع، أما المجتمع الذي يجتمع لتكوين حضارة فإنه يستخدم نفس الغريزة، ولكنه يهذبها ويوظفها بروح خلقي سام".[47]

إنّ الثقافة لا تمثل علما من العلوم تتخصص فيه فئة معينة، إنّما هي نظام تقتضيه الحياة بشكل عام بكل ما تحتويه من أصناف التفكير والتغيّرات داخل المجتمع وقد تكون وسيلة للتحضر، "وعلى الأخص إذا كانت الثقافة هي الجسر الذي يعبره البعض إلى الرقي والتمدن فإنها أيضا ذلك الحاجز الذي يحفظ البعض من السقوط من على الجسر إلى الهاوية".[48]

إنّ وظيفة الثقافة اجتماعية تربوية تاريخية، فدورها بمثابة الدور الذي يلعبه الدم، "والثقافة هي ذلك الدم في جسم المجتمع، يغذي حضارته ويحمل أفكار الصفوة كما يحمل أفكار العامة وكل من هذه الأفكار منسجم في سائل واحد من الاستعدادات المتشابهة والاتجاهات الموحدة المتناسبة".[49]

لا يمكن الحديث عن الحضارة دون ربطها بالثقافة، فهي المجال الذي برز فيه المجتمع المتحضر، "إنها الوسط الذي تتكون فيه جميع خصائص المجتمع المتحضر، وهي الوسط الذي تتشكل فيه كل جزئية من جزئياته تبعا للغاية العليا التي رسمها المجتمع لنفسه، بما في ذلك الحدّاد والفنان والراعي والإمام والعالم وهكذا يتركب التاريخ."[50]

يؤكد "مالك بن نبي" على الطابع الشمولي للثقافة فرديا واجتماعيا وإنسانيا وعلى التكامل بين هذه الجوانب في الحياة بقوله: "فالثقافة هي تلك الكتلة نفسها بما تتضمنه من عادات متجانسة، وعبقريات متقاربة وتقاليد

47- المرجع السابق: ص 111.

48- المرجع السابق: ص 109.

49- المرجع السابق: ص 109-110.

50- المرجع السابق: ص 108.

متكاملة، وأذواق متناسبة وعواطف متشابهة وبعبارة جامعة: هي كل ما يعطي الحضارة سيمتها الخاصة، ويحدد قطبيها: من عقلية ابن خلدون، وروحانية الغزالي أو عقلية ديكارت وروحانية جان دارك، هذا هو معنى الثقافة في التاريخ".[51]

تكبر الصلة بين الثقافة والحضارة لكون الثقافة عامل اجتماعي مهم جدا في التاريخ، "إذ لا يمكن أن تتصور تاريخا بلا ثقافة، فالشعب الذي يفقد ثقافته يفقد حتما تاريخه".[52]

إنّ ثقافة أي مجتمع تعكس نمط العيش عند أفراده، كما تحدد أنماط التفكير وأساليب العمل ووسائله واتجاهاته، كما تقوم بحفظ ونقل ذلك على انه تراث ثقافي من جيل إلى آخر ومن حقبة تاريخية إلى أخرى، وثقافة المجتمع المتحضر تعكس حضارة ذلك المجتمع وخصوصيات تلك الحضارة، كما تحافظ على عناصرها وتتكفل بنقلها إلى الآخرين، فهي تشكل إرادة الفرد وإرادة المجتمع والإرادة الفردية والاجتماعية المشتركة باعتبارها محيط يعكس الحضارة التي يصنعها الأفراد داخل المجتمع في مرحلة تاريخية معينة، فالثقافة تُنشأ الحضارة وتوجهها وتعكس سماتها وتمثل المحيط الذي يتحرك فيه الإنسان المتحضر، أما الحضارة فهي منتجات ثقافية ومادية نتجت عن قدرة الإنسان على الإبداع والتجديد وتفرده بالذكاء والعبقرية، فبين الثقافة والحضارة تداخل وتلازم دائمين.

د- الحضارة والدين.

إذا كانت الحضارة لدى العديد من المفكرين هي مظاهر التقدم الأدبي والفني والعلمي والتقني، وتنتقل من جيل إلى آخر، وتمثل في الوقت نفسه الصورة الغائية التي يستند إليها في الحكم على صفات كل فرد أو جماعة، فإنها تعني عند "مالك بن نبي" سائر الشروط والعوامل الأخلاقية والمادية التي تسمح

[51]- المرجع السابق: ص 108.

[52]- المرجع السابق: ص 107.

لمجتمع ما بأن يتكفل بجميع أفراده ماديا ومعنويا في جميع أطوار الحياة، فهي ظاهرة إنسانية مركبة من عدة عوامل مرتبطة بالفرد وبتفكيره وبحياته النفسية وسائر ظروفه وما يطرأ عليها من تغيّرات، كما تتصل بالمجتمع وبأوضاعه وبمكوناته وبما يجري عليها من تحولات، والدين ظاهرة إنسانية حالّة في الفرد وفي المجتمع، تتحدد بجملة من التعاليم والتوجيهات والمعتقدات يقرّ بها الإنسان وتنتظم سلوكه وتحدد نمط حياته.

إنّ أهمية الدين والفكرة الدينية في حياة الأفراد والمجتمعات، كبيرة جدا، لأن لها علاقة بحركة التاريخ وقيام المجتمعات وبناء الحضارات، الأمر الذي جعل "مالك بن نبي" لا يسقط الفكرة الدينية من جميع مناقشاته وكتاباته، فكيف يغفلها وهي أساس بناء الحضارة وأساس تحريك عجلة التاريخ وأساس تشييد صرح المجتمع المتحضر، وإذا كان الدين في نظر البعض عامل تخدير وجمود وتخلف فعنده عامل تركيب وتأليف بين عوامل وشروط ولوازم البناء الحضاري.

إنّ عناصر التحضر وشروطه موجودة لدى كافة الأمم والشعوب، لكن استثمار هذه الشروط والعناصر والتأليف بينهما أمر يحتاج إلى شرط خاص يتمثل في التحدي عند "توينبي" وفي الجدل لدى"هيجل" وفي الفكرة الدينية عند "مالك بن نبي"، فهي وراء البناء الاجتماعي، "فسواء كنّا بصدد المجتمع الإسلامي أو المجتمع المسيحي أم كنّا بصدد المجتمعات التي تحجرت اليوم واختفت تماما من الوجود نستطيع أن نقرر أن الفكرة التي غرست بذرتها في حقل التاريخ هي الفكرة الدينية".[53]

إنّ حركة التطور الاجتماعي مصدرها عوامل دينية واجتماعية تتمثل في ظواهر علاقات تبني المجتمع وتسعى إلى تنمية وتطوير حياته، فتصير تلك الظواهر والعلاقات بمثابة عوامل وقوانين تحرك التاريخ وتصنع التقدم والازدهار، "فالعلاقة الروحية بين الله والإنسان هي التي تلد العلاقة الاجتماعية، وهذه بدورها تربط ما بين الإنسان وأخيه الإنسـان... فعلى هذا

---

[53] مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص 52.

يمكننا أن ننظر إلى العلاقة الاجتماعية والعلاقة الدينية معا من الوجه التاريخي على أنها حدث ومن الوجهة الكونية على أنها عنوان على حركة تطور إجتماعي واحد".[54]

فمن الزاوية التاريخية الزمنية تتفق العلاقة الاجتماعية مع العلاقة الدينية، وهما ظاهرتان إنسانيتان اجتماعيتان، ومن الزاوية الكونية الميتافيزيقية تمثل العلاقة الروحية، شرط وجود العلاقة الاجتماعية في حركة التطور الاجتماعي، "فالعلاقة الاجتماعية التي تربط الفرد بالمجتمع هي في الواقع ظل العلاقة الروحية في المجال الزمني".[55]

عندما تقوى العلاقة الدينية تقوى شبكة العلاقات الاجتماعية، ويضيق مجال الفراغ الاجتماعي عندما تضعف العلاقة الدينية وتضعف معها العلاقة الاجتماعية وتتفكك شبكة هذه العلاقات، ويتسع مجال الفراغ الاجتماعي، فقوة أي مجتمع بقوة علاقاته الاجتماعية وتماسك أفراده، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا﴾.[56]

إنّ كمال التماسك يمثل الخلاص والهدف الأسمى الذي تستهدفه كافة الدساتير والشرائع والأنظمة، مستعملة ما تملك من وسائل إنسانية تحاول بها أن تزيل الفراغ الاجتماعي والله تعالى يقول: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألّفت بين قلوبهم ولكنّ الله ألّف بينهم إنّه عزيز حكيم﴾.[57]

إذا كانت الفكرة الدينية تبني شبكة العلاقات الاجتماعية وتصنع حركة التطور داخل المجتمع فإن الحضارة تمثل هذا التطور الذي هو من فعل الفكرة الدينية في الأصل، لذا حرص "مالك بن نبي" كل الحرص على توضيح أثر ودور الفكرة الدينية في تركيب الحضارة، وكيف تشترط سلوك

54- المرجع السابق: ص 52.

55- المرجع السابق: ص 52.

56- حديث نبوي شريف.

57- قرآن كريم: سورة الأنفال، الآية 63.

الفرد، "وكيف هي تنظم غرائزه تنظيما عضويا في علاقتها الوظيفية ببناء إحدى الحضارات".[58] وكيف يصنع الدين الإنسان لينهض بدوره في بناء الحضارة؟، وكيف تستطيع الفكرة الدينية أن تقدم التفسير العقلي لدور إحدى الديانات في تحريك التاريخ وتوجيهه.

لم يكتف "مالك بن نبي" في إبراز أثر الفكرة الدينية في تكوين الحضارة على معطيات التاريخ، وأفكار "كسرلنج"، إنّما لجأ "إلى لغة التحليل النفسي بغية تتبع إطار الحضارة باعتباره صورة زمنية للأفعال وردود الأفعال المتبادلة التي تتولد منذ مطلع هذا الاطراد بين الفرد والفكرة الدينية التي تبعث فيه الحركة والنشاط".[59]

إنّ الفرد في نقطة إنطلاق البناء الاجتماعي والحضاري هو فرد طبيعي فطري غريزي، تقوم الفكرة الدينية بضبط وإخضاع غرائزه ليس بإزالتها بل بتنظيمها وفق نظام يضمن انسجامها مع معطيات الفكرة الدينية، فيصير الجانب الحيواني فيه خاضعا لقوانين يفرضها الدين، فتسيطر على فكر الفرد وتأملاته وسلوكه مطالب وحاجات روحية، ويحصل الارتقاء من البهيمية الطبيعية إلى مستوى الروح في سلّم التغيير والتطور وكان هذا التحوّل النوعي في حياة الفرد من صنيع الدين.

إنّ المجتمع الذي أفرزته الفكرة الدينية لا يتوقف عن التطور بمجرد سيطرة الروح على الجانب الغريزي في الإنسان، بل ينتقل إلى مرحلة أخرى يسود فيها العقل الحياة في جميع قطاعاتها، فتحصل النهضة، لكن العقل ليس له سلطانْ الروح على الغرائز، إذ تبدأ الغرائز في التحرر وتبدأ الروح تفقد نفوذها على الغرائز شيئا فشيئا، هذا التطور يأخذ مجراه في حياة الفرد النفسية وفي النظام داخل المجتمع وفي شبكة العلاقات الاجتماعية عامة، "ولو استطعنا في هذا الحين بوسيلة دقيقة المراقبة لهذه الظروف النفسية بغية تتبع نتائج هذا الاطراد لأمكن أن نلاحظ انخفاضا في مستوى أخلاق

---

[58] مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 92.

[59] المرجع السابق: ص 100.

المجتمع".[60] ونقص الفعّالية الاجتماعية للدين واسترجاع الطبيعة هيمنتها على حياة الفرد والمجتمع تدريجيا.

لما يبسط العقل سلطانه على عرش الحياة الفردية والاجتماعية تنهض العلوم والفنون والصناعات، فتجد الغرائز والشهوات سبل ومنافذ للتحقق والإشباع، لأن العقل لا يملك قدرة السيطرة عليها، فهو ليس في مستوى الروح التي تضعف وتستكين وتعري الغرائز عن وجهها بشكل تام، فتتوقف وظيفة الفكرة الدينية في المجتمع، وهي مرحلة تغيب فيها شمس الحضارة ويدخل المجتمع "نهائيا في ليل التاريخ وبذلك تتم دورة في الحضارة".[61]

يستشهد "مالك بن نبي" في إبراز أثر الدين في تكوين الحضارة الإسلامية، ويعتمد على معطيات التحليل النفسي الفردي والاجتماعي، ولم يكتف بمعطيات التاريخ، فتحرر الفرد من غرائزه بفعل الفكرة الدينية في بداية انطلاق البناء الحضاري، حالة يمثلها "الصحابي بلال ابن رباح" حينما رفع سبابته وقال: "أحد، أحد" وهو تحت التعذيب وهي صيحة الروح متحدية قانون الطبيعة والغريزة، ويمثل الأمويون في استيلائهم على الحكم مرحلة أوج ازدهار الحضارة الإسلامية فتتقهقرت الروح وأخذت الغرائز تستعيد نفوذها، الأمر الذي أدّى إلى أفول الحضارة الإسلامية، واكتمال دورتها في التاريخ بعد ذلك.

إنّ جميع الاعتبارات السابقة حسب "مالك بن نبي" تبين لنا الدور الذي يلعبه الفرد في القيام بوظيفية وأداء رسالته الحضارتين بإيعاز من الفكرة الدينية، كما تحل الفكرة الدينية مشكلة استمرار الحضارة، فالحضارة لا تدوم ولا تتواصل مظاهرها إلا بوجود علة هي الفكرة الدينية مرتبطة بغاية معينة، فيضفي ذلك على الحياة دلالة ومعنى.

60- المرجع السابق: ص 104.

61- المرجع السابق: ص 105.

من جهة أخرى فإذا كان كل ناتج حضاري عند "مالك بن نبي" تركيب وتأليف بين عناصر ثلاثة هي الإنسان والتراب والوقت فإن الفكرة الدينية لها دورها في ظهور نواتج الحضارة وفي تكوين الحضارات.

ركّز "مالك بن نبي" في دراسته لتكوين الحضارة في بدايتها الأولى على دورتين هما:الدورة المسيحية والدورة الإسلامية، بين"السر الكوني الذي يركب العناصر الثلاثة: الإنسان والتراب والوقت، ليبعثها قوة فعالة في التاريخ".[62]

إنّ السرّ الكوني الذي كان وراء ظهور الحضارة الإسلامية وركب بين عناصرها الثلاثة الإنسان والتراب والوقت هو الدين الإسلامي، فدورة الحضارة الإسلامية بدأت بنزول القرآن، وشهدت بعد ذلك قمّة الخُلق الرفيع وحياة جديدة، السيادة فيها للروح وللمثل العليا لا للشهوات والغرائز، كما شهدت حياة فكرية واسعة نقلت عن الأولين ووضعت علوما جديدة، فكانت روح الإنسان المؤمن بالإسلام هي العامل الحاسم في البناء الحضاري، وجاءت "واقعة صفين" عام 37 هـ حوّلت حياة المسلمين إلى حياة يسودها العقل والترف والزينة وحب العظمة، فأخذت شمس الحضارة الإسلامية تغيب شيئا فشيئا.

إنّه نفس السر الذي كان وراء ميلاد الحضارة المسيحية التي تختلف في طبيعة ميلادها عن ميلاد الحضارة الإسلامية، فالحضارة الإسلامية جمعت بين ميلاد الفكرة الدينية وتسجيل هذه الفكرة في النفوس، فإن الحضارة المسيحية لم تتمكن من ذلك لأن الفكرة الدينية المسيحية لم تجد الفراغ الذي وجدته الفكرة الدينية الإسلامية، بل وجدت نفسها في وسط فيه تعدد الديانات والثقافات لم يسمح لها بالتوغل في النفوس وتؤثر فيها تأثيرا فعليا، إلا بعدما حلّت بمحيط الجرمانيين في شمال أوروبا فبعث فيها الفعالية لتصنع حلقة في سلسلة التاريخ كما بيّن "كيسرلنج" في كتابه "البحث التحليلي لأوروبا"، فمع الجرمانيين ظهرت روح خلقية سامية في العالم المسيحي، فهذا

[62] المرجع السابق: ص 74.

بعين الميلاد النفسي للحضارة ثم بدأت النهضة وخرجت من مرحلة الرفعة الروحية إلى حالة التطور العقلي، كل ذلك يعود إلى الروح الدينية المسيحية، ومرحلة الفناء أشار إليها "شبنجلر" بوضوح في كتابه "أفول الغرب" مما يبيّن ان الامم المتقدمة هي الأخرى مهددة في حضارتها بالفناء.

إنّ ما نستخلصه مع "مالك بن نبي" بالنسبة للدين والحضارة هو أنّ الدين يمثل العامل الأساسي القادر على تشكيل الظواهر والعلاقات والقيّم الاجتماعية، والفكرة الدينية هي مركب القيّم الاجتماعية، "هذا التشكيل يجعل من الإنسان العضوي وحدة اجتماعية، ويجعل من الوقت وقتا اجتماعيا مقدرا «بساعات عمل» ومن التراب مجالا مجهزا مكيّفا تكييفا يسد حاجات الحياة الاجتماعية الكثيرة تبعا لظروف عملية الإنتاج".[63] أما إذا صار "الإيمان إيمانا جذبيا دون إشعاع أعني نزعة فردية، فإن رسالته التاريخية تنتهي على الأرض إذ يصبح عاجزا عن دفع الحضارة وتحريكها".[64]

إنّ السبيل إلى الحضارة موجود والأداة متوفرة ما دامت الفكرة الدينية موجودة تركب بين الفئات الثلاثة: الإنسان التراب والوقت وتشكلها في "كتلة تسمى في التاريخ حضارة".[65]

هـ- عناصر الحضارة وأطوارها ومشكلاتها:

1- عناصر الحضارة:

يعتبر "مالك بن نبي" الحضارة كتلة مركبة من عناصر، وعناصر تركيب الحضارة ليست أشياء ومنتجات حضارية بل هي "أصول تفرضها طبيعة المنتجات وشروط تطور الإنتاج".[66]

---

[63]- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 27.

[64]- المرجع السابق: ص 27.

[65]- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 86.

[66]- مالك بن نبي: تأملات، ص 196.

إنّ المنتوج الحضاري هو كل ما ينتجه المجتمع في عالم الاشياء او عالم الأفكار، "فكل مفهوم في عالم المفهومات، وكل شخص من عالم الأشخاص باعتباره معادلة كشخصية أنتجتها ظروف التاريخ وشروط التطور كل عيّنة من هذه العيّنات هي منتوج حضاري".[67]

يستخدم "مالك بن ني" طريقة الكيميائي في تحليل الحضارة إلى عناصرها يقول في ذلك: "ولكي نتناول هذه المشكلة على هذا الشكل يتعيّن علينا اللّجوء إلى الطريقة المعتمدة في مختبر التحليلات".[68]

إنّ المنتجات الحضارية في عالم الأشخاص وعالم الأشياء من طبيعة اجتماعية واحدة، فهي نوع واحد من حيث تركيبتها ووظيفتها الاجتماعية، فالقلم والورقة والحبر أشياء، والكلمات تحمل أفكار ودلالات، والباحث والقارئ والمفكر من عالم الأشخاص، كلّ هذا من نوع واحد، إلا أنّ تفكيك أي عيّنة مما ذكر نجدها مركبة من ثلاثة عناصر أولية هي : الإنسان التراب والوقت.

يمكن التعبير عن كل منتوج حضاري بالمعادلة الأساسية التالية : "منتوج حضاري = إنسان + تراب + وقت.

ويجب الآن أن أكتب هذه المعادلة لكل منتوج من منتوجات الحضارة، من الإبرة إلى ما بعدها، وإلى ما بعد الصاروخ، حتى أكوّن جدولا كاملا من المعادلات الواحدة تحت الأخرى في هذا الترتيب مثلا:

- منتوج حضاري أول= إنسان + تراب + وقت.
- منتوج حضاري ثاني= إنسان + تراب + وقت.
- منتوج حضاري ثالث = إنسان + تراب + وقت.
- منتوج حضاري أخير= إنسان + تراب + وقت".[69]

---

[67]- المرجع السابق: ص 196.

[68]- مالك بن نبي: آفاق جزائرية، ص 69.

[69]- مالك بن نبي: تأملات، ص197.

يمكن حسب "مالك بن نبي" ترتيب المعادلات وجمعها عموديا على طريقة الجبر وتكون النتيجة التالية: "مجموع منتجات حضارية = مجموع إنسان + مجموع تراب + مجموع وقت".[70]

إنّ جمع إنسان ليس مجمل عدد الأفراد بل النوع البشري فهو نوع لا فرد أو أفراد، وجمع تراب ليس هو حصيلة جمع التراب الطبيعي لكن هو نوع أو مادة، وجمع وقت كنوع ضروري لأي فعل حضاري يصنع المنتوج الحضاري، يمكن صياغة النتيجة النهائية: حضارة = إنسان + تراب + وقت.

إنّ هذا التحليل يفضي إلى نتيجة حتمية مفادها أن الحضارة لا تقوم على ظاهرة تكديس المنتجات الحضارية، بل هي: "بناء مركب اجتماعي يشمل ثلاثة عناصر فقط مهما كانت درجة تعقيدها كحضارة القرن العشرين".[71]

فالإنسان باعتباره أحد عناصر الحضارة لا يكون كذلك إلا احتل مكانه في المجتمع، ككائن اجتماعي يقوم بوظيفة ويؤدي رسالة، والتراب كعامل اجتماعي خاضع لتهيئة فنية ناهيك عن وضعيته القانونية في المجتمع.

«Son conditionnement sociologique»

«Son aménagement technique»

والوقت لا يكون عنصرا أوليا في بناء الحضارة إلا إذا تكيف مع المجتمع، فيتحول إلى زمن اجتماعي تجري فيه جميع العمليات التالية: "الصناعية والاقتصادية أو الثقافية باعتبارها ركيزة تقوم عليها سائر إطرادات هذه العمليات".[72]

إنّ عمل الكيميائي يقوم على فكرة هي أن المركب يتركب حتما من العناصر التي يتحلل إليها، فالماء يتحلل من الهيدروجين والأوكسجين، لا يدخل في تركيب الماء عنصرا آخر غير العنصرين المذكورين، فالعناصر الثلاثة مجموعها يساوي منتوجات حضارية تمثل الحضارة نفسها، لكن

70– المرجع السابق: ص 197.

71– المرجع السابق: ص 198.

72– مالك بن نبي: آفاق جزائرية، ص 74.

حضارة في شتات لا في كتلة ووحده. يلجأ "مالك بن ني" إلى مختبر التاريخ ليدله "على المركب الذي يتدخل في تركيب العناصر الثلاثة: الرجل التراب، الوقت، كيما يكون بها حضارة".[73] ويتمثل هذا العنصر في الدين باعتباره الأساس الرابع من أسس الحضارة.

يستشهد "مالك بن ني" بالدور الذي لعبه الدين في تشكيل حضارات عديدة، من خلال تأليفه بين الإنسان والتراب والوقت، فالحضارة الغربية من صنع الفكرة الدينية المسيحية، والحضارة الإسلامية من إنتاج الدين الإسلامي، وفكرة "كوتاما" كدين هي شيّدت الحضارة البوذية، وعليه فمشكلة التحضر لا تُحل باستيراد المنتجات الحضارية وتكديسها، بل بحل مشكلة الإنسان ومشكلة التراب ومشكلة الوقت.

إنّ عناصر الحضارة الأولية الأربعة، الإنسان والتراب والوقت والفكرة الدينية المركبة يسميها "مالك بن ني" «العدة الدائمة»، فهي تمثل الزاد ورأس مال رجل الفطرة في حركته لبناء الحضارة، فلا يمكن قيام حضارة ما في غياب المادة الأولية متمثلة في رجل بسيط يتحرك وتراب يستغل ويكيف فنيا واجتماعيا وكل هذا يجري في زمن محسوب ونوعي وبفكرة دينية تجمع هذه العناصر في تآلف وتوحيد ترتبط معها المبادئ بالغايات.

إنّ المجتمع قد يعيش بغير المنجزات الحضارية، ومنتجات الحضارة لأن هناك أقوام لم تعرف الحضارة بتاتا لكنه لا يستطيع أن يتنازل عن ثروته الأولية وجوهر حياته الاجتماعية المتمثلة في العدة الدائمة.

إنّ العدة الدائمة تمثل عند "مالك بن ني" قيّما خالدة، تلك القيّم الخالدة هي "التي نجدها كلما وجب علينا العودة إلى بساطة الأشياء، أي في الواقع كلما تحرك رجل الفطرة وتحركت معه حضارة في التاريخ".[74]

---

[73] مالك بن نبي: تأملات، ص 199.

[74] مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 92.

2- أطوار الحضارة:

اختلف المفكرون في عوامل نشأة الحضارة، فهي عندهم تعود إلى العصبية أو تطور الإنتاج ووسائله وعلاقاته، أو إلى العرق أو إلى التحدي والجغرافيا، أو إلى الفكرة الدينية التي تركب بين العناصر الثلاثة، الإنسان والتراب والوقت حسب "مالك بن نبي"، نجد هذا الاختلاف قائما حول طبيعة تكوين الحضارة وأسباب نموها وعوامل أفولها واندثارها.

يرى البعض أن الحركة الحضارية في تكوينها ونموها صاعدة، تبدأ من البسيط وتتجه نحو المركب، وتزدهر بالتراكم والانتقال دوما من القديم إلى الجديد في الفكر والسلوك ووسائلهما، هذا ما يؤكده "باسكال" في الحياة العلمية، و"كارل ماركس" في الحياة الاقتصادية، وهو ما نجده لدى"أوغست كونت" الذي جاء بقانون الأحوال الثلاثة الذي يقضي بمرور الإنسانية عبر مراحل ثلاث في تطورها الحضاري، المرحلة اللاهوتية، المرحلة الميتافيزيقية، والمرحلة الوضعية.

غير أن هناك رأي آخر يعتبر حركة التاريخ ليست تقدمية صاعدة كما يتوهم البعض، بل نكوصية تراجعية، فنجدهم يعيبون على مستوى التقدم وسلبياته، ويبرزون الأزمات والشرور التي اجتاحت الإنسانية، وهي نزعة تبدوا تشاؤمية نجدها عند "جيته" و"اسبنجلر" وأصحاب النظريات الرومانسية وغيرها، وهذا "جيته" عبر عن نزعته في الموضوع بما يلي: "لقد صار الإنسان أكثر ذكاء ووعيا ولكنه لم يصبح أكثر سعادة أو أنبل خلقا".[75]

يوجد فريق من المفكرين يرى أن الحضارة في تاريخها تظهر في صورة دورات متعاقبة، وكان "ابن خلدون" أول من نادى بهذه الفكرة، وبعده كثيرون منهم "توينبي" و"وفيكو" وغيرهما، فالحضارة عند "ابن خلدون" تشهد أربع مراحل هي: بداوة، حضارة، ترف، تدهور وأفول. كل مرحلة لها عناصرها وخصائصها، وعمر الحضارة كعمر الإنسان، وهي ليست خالدة في المجتمع بل عارض زمني يمر كبقية العوارض.

---

[75] نقلا عن عكاشة شايف: الصراع الحضاري في العالم الإسلامي، ص 102.

إذا كانت الحضارة عند "ابن خلدون" ذات مراحل أربع فهي عند "اسبنجلر" كائن عضوي نشأ بفعل عوامل، ثم تنمو وتنتج وتتطور وتفنى، ولكل حضارة وجودها المستقل عن الحضارات الأخرى، والحضارة عند "توينبي" تبدأ مع التحدي والاستجابة، وتنمو وتزدهر بفعل التحدي والاستجابة دائما، وانهيارها سببه عجز المجتمع عن ممارسة التحدي والاستجابة، والانغماس في الخمول والترف والشعور بمركب العظمة.

من جهة يفسر "فيكو" حركة التاريخ الحضاري أنها ترسم شكلا حلزونيا متصاعدا متجددا باستمرار، يعجز معه الفلاسفة والمفكرون عن التنبؤ بمستقبل ومصير الحضارات، كما توصل "فيكو" إلى نظرية مفادها أن تاريخ البشرية مرّ بثلاث مراحل متتالية، مرحلة لا هوية ومرحلة بطولية، ومرحلة إنسانية، وكل مرحلة وكل حضارة تكون أحسن من التي سبقتها لأن الإنسان دائما يصحح أخطائه ويستفيد من خبرات وزلات الغير.

درس "مالك بن نبي" جميع نظريات الحضارة و"فلسفة التاريخ" وحكم عليها، وقدم في النهاية نظريته، فهو يقول في تفسير التاريخ عند "ابن خلدون": "أما ابن خلدون فقد تمكن من قبل من اكتشاف منطق التاريخ في مجرى أحداثه فكان بهذا المؤرخ الأول الذي قام بالبحث عن هذا المنطق إذا لم نقل أنه قد قام بصياغته فعلا، فقد كان يمكن أن يكون أول من أتيح له أن يصوغ قانون الدورة التاريخية (la loi du cycle) لولا أن مصطلح عصره قد وقف به عند ناتج معين من منتوجات الحضارة ونعني به – الدولة - وليس عند الحضارة نفسها".[76]

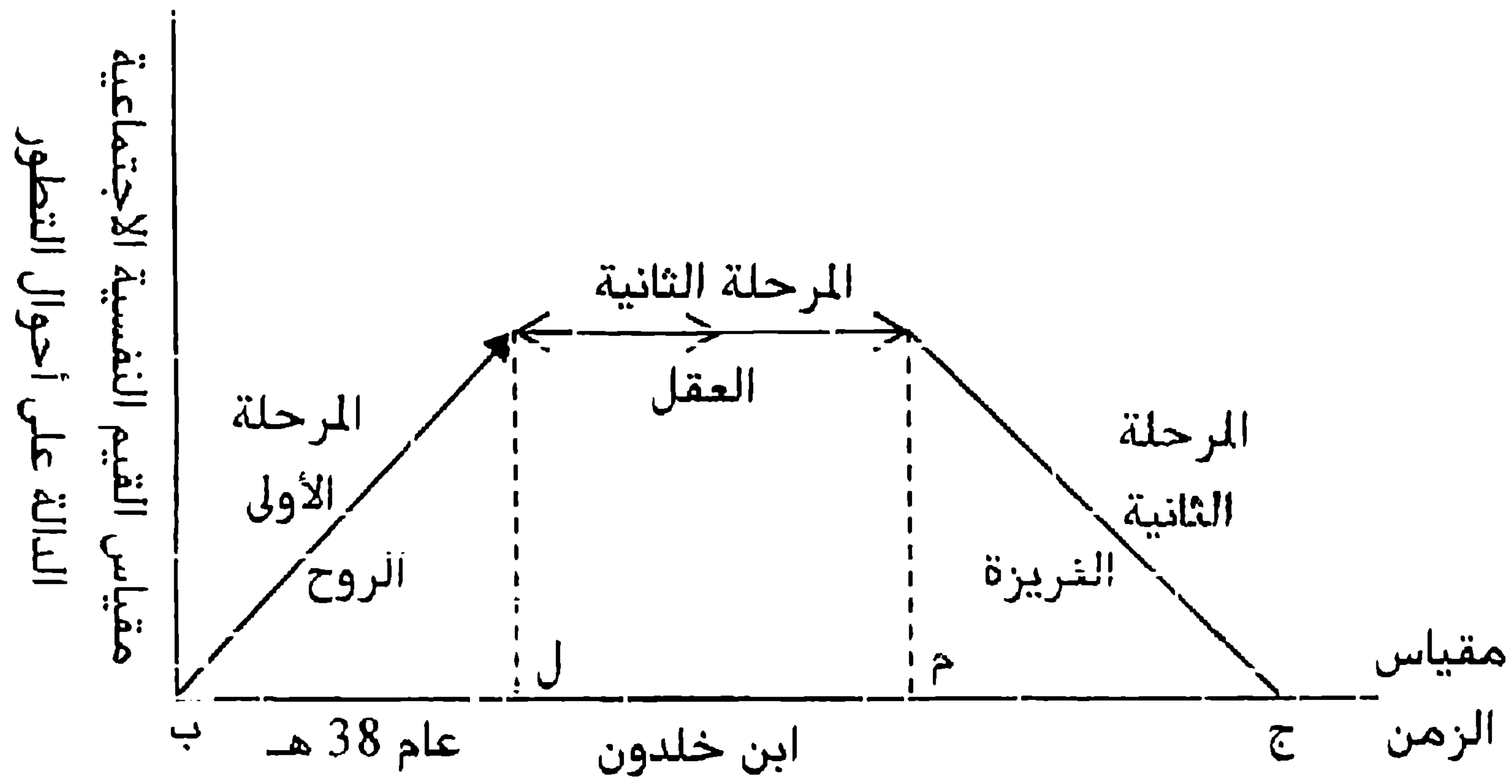
ينقد "مالك بن نبي" التفسير الماركسي لحركة التاريخ والحضارة، لكونه ينطلق "من حتمية مادية أي من عملية ميكانيكية لا إرادية لتخطيط الحضارة".[77] وينعت تفسير "سبنجلر" بالعنصري، لكونه يربط الحضارة بعبقرية خاصة منفردة، ويرد على "توينبي" بأن تفسيره لا ينطبق على العديد

[76] - مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 93.

[77] المرجع السابق: ص 95.

من الحضارات التي شهدها تاريخ الإنسانية، فالحضارة الإسلامية لم تنشأ بالتحدي والجغرافيا، مما يدل على قصور نظرية "توينبي" في "فلسفة التاريخ".

على ضوء الدراسة التي قام بها "مالك بن نبي" للنظريات المتعددة والمختلفة في "فلسفة التاريخ" والانتقادات التي وجهها لها وعلى ضوء معطيات التاريخ بهدى طريقة التحليل النفسي الفردي والجماعي التي سلكها توصل إلى نظرية في عناصر الحضارة وأطوارها، وعمر الحضارة وأطوارها تتحدد وتتفتح من خلال الصورة التخطيطية التالية:



يظهر من الرسم التخطيطي أن الدورة التاريخية لأي حضارة ما "تقع بين حدّين اثنين: الميلاد والأفول والمعنى البياني يبدأ بالضرورة من النقطة الأولى في خط صاعد، ليصل إلى النقطة الثانية في خط نازل".[78] أما التطور الانتقالي الذي يتوسط الخطين "هو الأوج".[79] فالحضارة تعرف مراحل هي: مرحلة النهضة ومرحلة الأوج ومرحلة الأفول، وكل مرحلة من هذه المراحل تتحدد بخصوصيات ترتبط بمجال ما من مجالات الطبيعة البشرية وبخصوصيات ومتطلبات كل مجال، فمرحلة النهضة ترتبط بالروح وتصدر

---

[78]- المرجع السابق: ص 98-99.

[79]- المرجع السابق: ص 99.

عنها، ومرحلة الأوج تتصل بالعقل وتتوسع بإمكانياته وعاره، ومرحلة الأفول تصنعها الغريزة.

إنّ دورة الحضارة تبدأ عندما "تدخل فكرة دينية معينة في التاريخ أو"عندما يدخل التاريخ مبدأ أخلاقي معين"(ethos) على حد قول «كسرلنج» كما أنها تنتهي حينما تفقد الروح نهائيا الهيمنة التي كانت لها على الغرائز المكبوتة أو المكبوحة الجماح".[80]

في نقطة الصفر من الدورة الحضارية يكون الإنسان في مرحلة سابقة على الحضارة، وعندما تبدأ الحضارة بدخول فكرة دينية في التاريخ لتحركه، يكون الإنسان في مرحلة الحضارة، أما في نهاية الدورة تُسلب من الإنسان حضارته فيكون في مرحلة ما بعد الحضارة.

ففي مرحلة ما قبل الحضارة يعيش الإنسان على الفطرة والطبيعة، بحيث تسيطر عليه الغرائز وتشده الحاجات البيولوجية ويسود التنازع على البقاء وتسيطر الفوضى على حياة الفرد والتجمعات البشرية، أما في مرحلة الحضارة يقفز الإنسان إلى النظام والقيم العليا والازدهار الاقتصادي والاجتماعي والفكري بفعل التحام الإنسان بالتراب والوقت بفعل الفكرة الدينية، فتستولي الروح على حياة الإنسان ويسيطر العقل ويتوسع استعماله وتكثر منتجاتها، أما في مرحلة ما بعد الحضارة يكون الإنسان قد "تفسخ حضاريا وسُلبت منه الحضارة تماما".[81]

أما بالنسبة لأطوار الدورة الحضارية في التاريخ، فطور النهضة أو الروح فيه تتحرر الروح كليا من ربقة الغرائز وتقوم بتنظيم تلك الغرائز وضبطها وتوجيهها لا إلغائها، والروح الإسلامية انطلقت من صيحة "بلال ابن رباح" وهو يكرر قوله: أحد....أحد....."إنّها صيحة الروح التي تحررت من إسار الغرائز بعدما تمت سيطرة العقيدة عليها نهائيا في ذاتية بلال بن

---

[80]– المرجع السابق: ص 105.

[81]– المرجع السابق: ص 105.

رياح".[82] ويبدأ الصراع بين الغرائز المكبوحة وبين الروح لأن الغرائز حينما تُكبت وتُكبح تبقى تحافظ على نزوعها نحو التحرر والإشباع.

أما طور النهضة أو الأوج فيه يشهد المجتمع تطوره وتتثبت القيّم العليا وتكتمل شبكة صلاته الداخلية وتتوطن كلما اتسع مجال الفكرة الدينية في العالم، ويستمر التطور ويأخذ العقل مكانه في الدورة فتزدهر العلوم والفنون والصناعات وتزداد المنافع ويتجه الإنسان نحو البذخ والترف في عهد سلطان العقل الذي لا يملك السيطرة على الغرائز مثلما الحال في عهد الروح، لذا تبدأ الغرائز في التحرر وتبدأ الروح تفقد سلطانها شيئا فشيئا عليها، والغرائز تتحرر تدريجيا حسب درجة ضعف سلطة الروح، والحال هنا نجده في عصر النهضة الأوروبية بالنسبة للدورة الحضارية في أوروبا حديثا، وفي عصر الأفول بالنسبة للدورة الحضارية الإسلامية.

أما طور الأفول الذي يبدأ في أواخر الطور الثاني وفي الوقت الذي تنقص فيه الفعّالية الاجتماعية للفكرة الدينية و"تستعيد الطبيعة غلبتها على الفرد وعلى المجتمع شيئا فشيئا".[83]

فنهاية الدورة تكون عندما يفقد الإنسان همته "قوة الإيمان" وتتوقف الرياح التي حركته، كما يتوقف نور الروح ويتوقف معه إشعاع العقل، "والروح وحدها هي تتيح للإنسانية أن تنهض وتتقدم، فحيثما فقدت الروح سقطت الحضارة وانحطت لأن من يفقد القدرة على الصعود لا يملك إلا أن يهوي بتأثر جاذبية الأرض".[84]

فنظرية أطوار الحضارة وحركة الدورة الحضارية تؤكدها التجارب التاريخية العامة، كتجربة الدورة الحضارية المسيحية وكذلك الدورة الحضارية الإسلامية، "ولا تكاد حضارة ما تشذ عن هذه القاعدة".[85] والحضارة حلقة في

---

[82]- المرجع السابق: ص 102.

[83]- المرجع السابق: ص 104.

[84]- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 26.

[85]- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 79.

تسلسل الدورات الحضارية في تاريخ الإنسانية، "إذ تبدأ الحلقة الاولى بظهور فكرة دينية ثم يبدأ أفولها بتغلب جاذبية الأرض عليها بعد أن تفقد الروح ثم العقل".[86]

3- مشكلات الحضارة:

يتضح من عناصر مشكلات الحضارة وأطوارها أن الحضارة ظاهرة إنسانية تتشكل من الإنسان والتراب والوقت، بفعل الفكرة الدينية التي تدخل التاريخ وتؤلف بين العناصر الثلاثة السابقة، أعظم مشكلة في حياة الإنسان حسب "مالك بن نبي" هي مشكلة الحضارة ذاتها وترتبط هذه المشكلة بالعناصر الأولية المكونة للحضارة من جهة وبمشاكل تحيط بالإنسان، تختلف باختلاف بيئته، "فالإنسانية لا تعيش ولا تعاني مشكلة واحدة، بل مشاكل متنوعة تبعا لتنوع مراحل التاريخ".[87]

إذا كانت مشكلة الإنسان الكبرى هي الحضارة من حيث عناصرها وشروط بنائها وأسباب هدمها، فإن هذه القضايا تطرح تساؤلات ترتبط بالإنسان والتراب والوقت من جهة وبالمحيط الذي يعيش فيه الإنسان من جهة أخرى، وهو يختلف من مكان إلى آخر ومن مرحلة تاريخية إلى أخرى، وبالتالي توجد ثلاث مشكلات فرعية تنحل إليها مشكلة الحضارة وهي مشكلة الإنسان ومشكلة التراب ومشكلة الوقت.

إنّ مشكلة الإنسان يحددها السؤال التالي: كيف السبيل إلى إنسان قادر على بناء حضارة والمحافظة عليها؟. ويؤكد "مالك بن نبي" على هذه القضية من خلال فكرة تُعتبر إجابة على سؤال: هل نحن في حاجة إلى مؤسسات أم إلى رجال؟، "يجب أولا أن نصنع رجالا يمشون في التاريخ مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافه الكبرى".[88] ولبلوغ هذا المبلغ يجب الإلمام

---

[86]- المرجع السابق: ص 79.

[87]- المرجع السابق: ص113.

[88]- المرجع السابق: ص 114.

بالمشكلة برمتها مشكلة الحضارة -- والتركيز على عنصرها الأساسي القيادي المؤثر بقوة وهو الرجل، وينبغي فهم كيف يؤثر هذا الإنسان في تركيب الحضارة، والفرد يؤثر في مجتمعه "بثلاثة مؤثرات: أولا: بفكره، ثانيا: بعمله، وثالثا: بماله"، وبالتالي ينبغي توجيهه في الجوانب الثلاثة، توجيه الثقافة وتوجيه العمل وتوجيه المال أو رأس المال.

لكي يكون الفرد إيجابيا داخل المجتمع يتطلب الأمر التوجيه الثقافي الصحيح، الذي يراعي كافة عناصر الثقافة ويحدد معناها، وتوجيه الثقافة يشمل الجانب الخلقي والجمالي والمنطق العملي وكذلك الصناعة بتعبير ابن خلدون.

"إن توجيه العمل في مرحلة التكوين الاجتماعي عامة يعني سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد بما في ذلك جهد السائق والراعي، وصاحب الحرفة، والتاجر الطالب، والعالم والمرأة، والمثقف والفلاح لكي يضع كل منهم في كل يوم لبنة جديدة في البناء".[89] إنّ الكرامة والرفاهية تنبثقان من توجيه العمل الذي هو تأليف لكافة الجهود لتغيير وضع الإنسان، وإيجاد محيط جديد بجعل العمل وسيلة لكسب القوت بعدما كان"التوجيه المنهجي للعمل شرطا عاما أولا".[90]

إنّ توجيه رأس المال باعتباره قوة مالية مجردة تختلف عن الثروة، تكونت مع ظهور الصناعة الميكانيكية، فالمال الذي صار قوة تنتقل من بلد إلى آخر وتُقيم العلاقات الاقتصادية بين البلدان، تُسخر الأيدي والعقول حيثما نزلت، إنّ توجيه هذه القوة لا يرتبط بكمها بل بكيفها ونوعها، إذ ينبغي أن تصير كل قطعة نقدية متحركة تنتج معها العمل والنشاط، أما التوفير فيأتي في الدورة الثانية. "إنّ القضية ليست في تكديس الأموال بل بتحويل معناها الاجتماعي من أموال كاسدة إلى رأس مال متحرك، يُنشّط

---

[89]- المرجع السابق: ص 163.

[90]- المرجع السابق: ص 163.

الفكرة والعمل والحياة في البلاد".[91] وهذا يرتبط بأسلوب يصل إلى التخطيط الملائم لبناء حياة اقتصادية لا تكون فيها الأموال في أيدي فئة قليلة "تستغل السواد الأكبر من الشعب بل يجب أن يتوفر فيه إسهام الشعب مهما كان فقيرا، وبذلك يتم التعادل بين طبقات المجتمع، وتنسجم مصلحة الجماعة مع مصلحة الفرد".[92]

إذا كانت مشكلة الحضارة الأولى هي مشكلة الإنسان فإن المشكلة الثانية هي مشكلة التراب، التراب هنا لا يعني تلك المادة في الطبيعة من حيث خصائصها وأنواعها، ولكن التراب كنوع ومن حيث قيمته ووظيفته الاجتماعيتين المستحدثتين من مالكي التراب، وقيمة التراب تكون غالية أو منحطة حسب تحضر الأمة أو انحطاطها.

ترتبط مشكلة التراب في أصلها بمشكلة الإنسان الذي يملك هذا التراب، وهو مادة جامعة لا تقدر على الحركة إلا إذ حركتها أيدي ذات توجيه تقني وفني وثقافي قوي وسليم، فالياباني حسب "تويني" استطاع أن يستغل الوظيفة الاجتماعية للتراب لوجود عنصر التحدي والاستجابة لديه رغم ضعف تربته فهي جزر ذات جبال وصخور، ونجد الإندونيسي الذي عجز عن إدراك وظيفة التراب اجتماعيا فهو غارق في التخلف، وفي الحالتين يعود الأمر إلى موقف الإنسان من التراب وليس إلى طبيعة التراب ذاته.

إنّ المشكلة الثالثة من مشكلات الحضارة هي مشكلة الوقت، وترتبط هذه المشكلة في نظر "مالك بن نبي" بمشكلة الإنسان، "والواقع أننا عندما نضع مشكلة الإنسان تحت زاوية النمو يبدوا لنا الزمن كبعد من أبعاد فعّاليته، فالمشكلة "أعني مشكلتي الإنسان والزمن" مترابطان فيما بينها، والمواجهات التي تقدم حلاّ لأولهما تحل كل الثانية معها".[93]

---

[91]- المرجع السابق: ص 172.

[92]- المرجع السابق: ص 72-73.

[93]- مالك بن نبي: آفاق جزائرية، ص 87.

إنّ موقف الإنسان من الوقت هو الذي يحدد قيمته الاجتماعية، ويجعل منه عامل بناء وتشييد أو عنصر هدم وتدمير وضياع، فبمقدار ما يُقدس الزمن في العمل بمقدار ما يوظف التراب كشرط عام أولا وكأداة للحصول على القوت اليومي ثانيا، وتتحقق الوظيفة الاجتماعية للوقت ويصير عنصرا أساسيا في بناء المجتمع وتحريك التاريخ وتكوين الحضارة.

فالألمان مثلا تمكّنوا من استعادة ما دمرته الحرب العالمية الثانية في وقت قياسي واسترجعوا مكانتهم بين الأمم المتحضرة في أقل من عشر سنين من توقف الحرب، ويعود ذلك إلى تدابير تتعلق كلها بنبذ التهاون في العمل وتقديس الوقت ومضاعفة وقت العمل وغيرها، وإدراك المسلمين في بداية نهضتهم لوزن الوقت واعتمادهم على مبدأ تقديس الوقت هو الذي دفع بالنهوض الحضاري لديهم.

إنّ احترام الوقت وتقديسه لا يعني السرعة الكبيرة في ممارسة المخططات والتهور المؤدي إلى خيبة الأمل وعدم الوصول إلى النتائج المسطرة، واحترامه لا يتحقق لدى لأي فرد أو أي مجتمع بل يضمنه العمل بالتوجيه في مختلف صوره الأخلاقية والجمالية والمنطقية والثقافية بشكل عام.

إنّ المعجزة الألمانية صنعتها عوامل كثيرة "من بينها الاقتصاد في الجهاز الإداري في التكاليف الإدارية، فقد أصبح كثير من أعمال الحكومة يقوم به أفراد الشعب كواجب عليهم، ولكن العامل المهم من هذه العوامل جميعها هو: الزمن".[94]

نستنتج مما سبق- مع مالك بن نبي- أنّ الجامع المركب بين العناصر الثلاثة، الإنسان والتراب والوقت هو الفكرة الدينية، وعناصر الحضارة هي نفسها مشكلاتها، وتشهد الحضارة في دورتها الحضارية ثلاثة أطوار، طور النهضة وطور الأوج وطور الأفول، ومشكلات الحضارة لا تُحل بالاستيراد والاقتناء والتكديس، "ولكنها تستوجب حل ثلاث مشكلات جزئية:

---

[94] مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 215.

- مشكلة الإنسان وتحديد الشروط لانسجامه مع سير التاريخ.
- مشكلة التراب وشروط استغلاله في العمليات الاجتماعية.
- مشكلة الوقت وبث معناه في روح المجتمع ونفسية الفرد".[95]

و- رسالة الحضرة:

ترتبط رسالة الحضارة بالإنسان وبحياته عامة في مستوى الفرد وفي مستوى المجتمع، كما تتصل بتاريخه وبثقافته، لأنّ الحضارة تمثل دورة تاريخية يصنعها الفرد ويعيشها داخل المجتمع، وتمثل الثقافة مظهر هذه الدورة ومحيطا يعكسها، كل هذه المعطيات تعيش معا بل تتآلف ضمن إطار تضبطه وتنظمه جملة من السنن تجمع بين المبادئ والسبل والغايات، فتحقق وظيفة الحضارة ورسالتها.

إنّ ما يدفع بني البشر على التعاون والاجتماع فيما بينهم هو عجز الفرد الواحد عن أداء جميع الوظائف والحصول على كافة الحاجات، فحاجة الناس إلى بعضهم البعض ضرورة تفرضها طبيعتهم ورغبتهم التي فطروا عليها في العيش معا، وبالاجتماع يتم التفاهم والتعاون وفق قيّم وعلاقات اجتماعية وفردية تشكل المجتمع وتبني الحضارة، هذه الحضارة ترتبط بالمجتمع وتعكس تطوره وإنسانيته، وأي اجتماع بشري خالي من الحضارة حتى ولو شهد شيئا من التطور في حياته فهو اجتماع ذو طابع بدائي، يسوده قانون الغاب، وهو أمر لا يتناسب مع ضمان إنسانية الإنسان، فالحضارة تلازم المجتمع وتضمن تلك الإنسانية في أبعد صورها وأشكالها، فالحد الفاصل عند "مالك بن نبي" بين الإنسان المتحضر والإنسان اللاّمتحضر أي البدائي الهمجي هو هذه الحضارة، أي أن الحضارة تفصل بين الحياة البدائية الهمجية المتوحشة الخالية من الأمن والاستقرار والحياة الإنسانية المدنية التي يسودها الأمن والتطور والازدهار في مختلف المجالات.

---

[95] - مالك بن نبي: تأملات، ص 199.

إنّ المجتمع المتحضر يضمن لأفراده بقائهم ويوفر لهم جو الحرية ويحميهم من مخلّفات الانحدار في مختلف ميادين الحياة الفكرية والاقتصادية، فالحضارة هي "مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذلك من أطوار نموه".[96]

من دون الحضارة لا يصير الإنسان محصنا في حياته ومصيره، غير آمن، وحاجاته لا تتحقق، ويصبح مهدد في شخصيته الفردية والوطنية والدينية، "فالإنسان الذي لا يكون مجتمعه مجتمع حضارة فهو معرّض للحرمان من الضمان الاجتماعي، فأنا حينما أحاول تحديد مجتمع أفضل فكأنني أحاول تحديد أسلوب حضارة، إذ أنني حينما أحقق الحضارة، أحقق جميع شروط الحياة، والأسباب التي تأتي بمتوسط الدخل المرتفع، بمعنى أنني احقق الخريطة الاقتصادية ونتائجها الاجتماعية والثقافية أيضا".[97]

إنّ حركة المجتمع الشاملة في مجال الفكرة الأخلاق والاقتصاد التي تضمن لنفسها انسجاما كافيا بين الحياة الروحية والحياة المادية في مستوى حياة الفرد وفي مستوى حياة المجتمع هي التي تنتج الحضارة، والمجتمع هو مجمع بدائي ما لم تكن له حضارة يتحرك بها باستمرار نحو الأفضل.

"تكتسب الجماعة الإنسانية صفة "المجتمع" عندما تشرع في الحركة، أي عندما تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غايتها، وهذا يتفق من الوجهة التاريخية مع لحظة انبثاق حضارة معينة".[98] وهذا يعني أنّ الجماعة البشرية غير المتحركة لا تغيّر نفسها لأن ليس لها غاية، وبالتالي فهي جماعات بدائية تعيش في مرحلة ما قبل الحضارة.

يصور لنا "مالك بن نبي" الدور الذي تلعبه الحضارة في صلتها بالمجتمع والتاريخ، هذا الدور لا يمكن أن تقوم به جهة أخرى غير الحضارة باعتبارها

---

[96]- مالك بن نبي: آفاق جزائرية، ص 46-47.

[97]- مالك بن نبي: تأملات، ص 161-162.

[98]- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص 16.

المحيط الذي يوفر الشروط الضرورية لبناء الفرد وبناء المجتمع وبناء التطور والازدهار في كافة مجالات الحياة، كما يبين لنا كيف تؤدي الحضارة رسالتها العظمى المتمثلة في الانتقال من المجال الطبيعي البيولوجي الغريزي إلى المجال الإنساني المليء بالقيّم والنظم والتطور، "لأنّ الطبيعة توجد النوع، ولكن التاريخ يصنع المجتمع وهدف الطبيعة هو مجرد المحافظة على البقاء، بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية هو ما نطلق عليه اسم الحضارة".[99]

إنّ الحضارة تنشأ في التاريخ، ينشئها المجتمع في حقبة تاريخية معينة، والطبيعة هي تعطيه الطاقة، هذه الطاقة وحدها غير قادرة على تشكيل الحضارة ما لم يتدخل الإنسان ويوجهها صوب غايات واضحة ومحددة، فالحضارة هي ازدهار وتطور في كافة الميادين وباستمرار ونحو الأحسن، لكن ذلك مشروط بانسجام النظام الفكري الذي يوجه هذه الحضارة مع الإمكانيات المتوفرة والتي يمكن توفيرها، وبالانسجام بين هذين المعطيين وأبناء المجتمع الساعي إلى التحضر والراغب فيه.

إنّ المجتمع العامر بالحضارة هو متميز عن غيره بما يحمله من خصائص حضارته التي يشترك فيها جميع أفراده، وبتالي نمط حضارته واحد هو الذي يدفع أفراده إلى التعاون لبلوغ الأهداف والغايات المسيطرة، ولا يحصل نهوض حضاري في جزء من فئات المجتمع دون الأخرى، إنّ "الخليفة المسلم والراعي المسلم يتصفان بسلوك واحد لأن جذور شخصيتهما تغوص في أرض واحدة، هي المآل الروحي للثقافة الإسلامية، والطبيب الإنجليزي والطبيب المسلم يختلف سلوكهم لأن جذورهما لا تغوص في نفس الأرض على الرغم من أن تكوينها المهني يتم في إطار منهج واحد فلكل ثقافة وجودها الخاص، بحيث تزداد قدرتها على التمييز كلما تغير المستوى الاجتماعي لجانبي المقارنة".[100]

---

[99] المرجع السابق: ص 16.

[100] مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 51.

لقد قامت الحضارة الإسلامية بدخول «الروح القرآنية» فألّفت بين عناصر التحضر، وانتقل على إثرها الإنسان العربي من حياة البادية القائمة على الترحال والبساطة إلى حياة عرفت دولة إسلامية قوية جدا بعدتها وعددها عسكريا واقتصاديا وفكريا، قائدها "محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم"، وبهذا المثال تتجلّى الرسالة الروحية للحضارة، فالحضارة تقوم حينما يدخل الإنسان التاريخ بفكرة دينية تحدد المبدأ والمسار والمصير، وهي رسالة أرادها "مالك بن ني" أن تكون لدى الإنسان المسلم كما يلي: "إذا أراد المسلم أن يسد هذا الفراغ في النفوس المتعطشة، النفوس المنتظرة لمبررات جديدة فيجب أولا أن يرفع مستواه إلى مستوى الحضارة أو أعلى منها كي يرفع الحضارة بذلك إلى قداسة الوجود، ولا قداسة لهذا الوجود إلا بوجود الله، والمسلم إذا أتى بهذا لا بلسانه ولا بشطحاته الصوفية وإنّما كإنسان معاصر للناس شاهد عليهم بالتقى والورع بنزاهة الشاهد الصادق الخبير الواعي لقيمة شهادته إذا أتى المسلم هكذا في صورة الإنسان المتحضر الذي اكتملت حضارته بالبعد الذي يضيفه الإسلام إلى الحضارة "وهو بعد السماء"عندئذ ترتفع الحضارة كلها إلى القداسة".[101]

تتضح مما سبق رسالة الحضارة في أبعادها المختلفة، فهي بالنسبة للإنسان ترفعه فوق المخلوقات الأخرى وتضمن له إنسانيته وتميزه عن التوحش والهمجية، وهي بالنسبة للفرد توفر له كل ما يحتاج إليه في كل طور من أطوار حياته، أما بالنسبة للمجتمع فهي تخرجه من دائرة التجمعات الإنسانية وتدخله في التاريخ لتبنيه وتصنع تطوره فيحمل خصائصها ويتميز عن غيره، بها يتحقق التوازن بين الجانب المادي والجانب الروحي في حياة الإنسان، ويحصل التوازن والانسجام بين الجانب الدنيوي والجانب الأخروي في إطار مسار يربط بين المبدأ والوسيلة والغاية "المبدأ والمصير" في تكامل تام.

---

[101]- مالك بن نبى: دور المسلم في الثلث الأخير من القرن 20، ص 39-40.

5- التجديد الحضاري في فكر مالك بن نبي.

أ- مدلول التجديد الحضري:

للإحاطة بمدلول التجديد الحضاري عند فيلسوف الحضارة "مالك بن نبي" ينبغي البدء بالفصل بين اللّفظيين المكونين للمفهوم أو التصور "التجديد الحضاري"، فالتصور مركب من كلمتين هما: التجديد والحضارة، وينبغي كذلك تعريف كل لفظة بمفردها لغة واصطلاحا ثم الجمع بينهما في تصور واحد.

قد تختلط لفظة تجديد فيما تدل عليه مع ما تدل عليه ألفاظ أخرى مهمة ومرتبطة بالحضارة مثل معاني التغير، التحول، التقدم، التطور، الإبداع، الابتداع والاكتشاف وغيره، لذا ينبغي تحديد معاني هذه الألفاظ والتمييز بينها وبين التجديد وتحديد الصلات التي تجمعها بالتجديد في إطار الحضارة.

بعد التمييز بين لفظة التجديد وبقية الألفاظ الأخرى لغة واصطلاحا وتحديد الصلات التي تجمع تلك الألفاظ بالتجديد في اللغة وفي الاصطلاح في إطار الحضارة، تتناول صلة التجديد بالحضارة بشكل عام ثم ننتقل إلى تحديد معنى التجديد الحضاري عند "مالك بن نبي" فهل هو البناء الحضاري أم تغيرات تجري داخل الحضارة ذاتها؟، فإن كان التجديد الحضاري يعني البناء الحضاري، فما هي عناصر ومواد هذا البناء ؟، وإذ كان التجديد الحضاري تغيرات تطرأ على الحضارة فما هي عوامل ومظاهر هذه التغيرات وما هي نتائجها؟، أهي الاستمرار والدوام والقوة أم هي الإنهيار والأفول؟.

كلمة "تجديد" في الفرنسية Innovation وهي مصدر لفعل جدّد، يجدد والمصدر تجديد "وجدّد الشيء صيّره جديدا، والتجديد إنشاء شيء جديد أو تبديل شيء قديم، وهو مادي كتجديد الملبس والمسكن أو معنوي كتجديد مناهج التفكير وطرق التعليم، ويغلب على التجديد أن يكون مذموما في المجتمعات الزراعية الشديدة التمسك بتقاليدها، وأن يكون محمودا في

المجتمعات الصناعية التي تقدس روح الاختراع".[102] ويعرفه "أندريه لالاند" في قاموسه بما يلي:

"Innovation : production de quelque chose de nouveau.[103] "

فالتجديد عند "أندريه لالاند" هو إنتاج شيء جديد، والشيء الجديد قد يكون ماديا وقد يكون معنويا فالطائرة، والهاتف، والتلفاز، والمذياع وغيره من الأشياء المادية كلها أشياء جديدة أنتجها الإنسان، أما المنطق الصوري، ونظرية التحليل النفسي والمنهج التجريبي وجمهورية أفلاطون كلها مناهج في التفكير جديدة أنتجها عقل الإنسان.

لكن التجديد لا يرتبط بإنتاج الأشياء فقط بل يعني كذلك تبديل شيء قديم، وهذا الشيء الذي يجري عليه التبديل قد يكون هو الآخر ماديا أو معنويا، فتبديل كوخ من طين وقش إلى مسكن من حجارة إلى عمارة من حديد وإسمنت وغيرها يُعد تجديدا ماديا، أما تبديل القياس بالمنهج التجريبي في دراسة الظواهر الطبيعية، وتبديل منهج الإلقاء والتلقين في تعليم التفلسف بمنهج الحوار، وتبديل طريقة التعليم بالأهداف بطريقة التعليم بالكفاءات، كل هذا يعد تبديلا معنويا وفكريا.

نستنتج مما سبق أن كلمة تجديد في اللغة العربية مصدر لفعل جدّد وجدّد الشيء يعني صيّره جديدا، "والتجديد هو الابتكار، إعادة التنظيم،قال ابن الرومي: أهي شيء لا تسأم العين منه أم لها كل ساعة تجديد؟".[104]

فالتجديد يكون حيث يكون الجديد، هذا التجديد إما في الأشياء وإما في الأفكار، وهو جديد في الإنشاء أو تبديل شيء قديم. ويقابل التجديد الجمود والخمول والثبات وعدم مبارحة وضعية ما.أما في الاصطلاح فهو فاعلية إنسانية مصدرها الفرد والمجتمع تقوم على مبارحة وضعية الجمود والخمول والثبات، وتأخذ بالمبادرة والنمو والتغيير في الفكر والعمل،

---

[102]- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ص 242.

[103]- Lalande: vocabulaire technique et critique de la philo-p 516-517.

[104]- جماعة من الباحثين: القاموس الجديد للطلاب، ص171.

وبوسائله في كل مجالات الحياة، فالتجديد يرتبط بالإنسان وبما يملكه من قدرات وطاقات في مستوى الفرد وفي مستوى المجتمع، فهو متصل بالجانب النفسي والذهني عند الإنسان كما يتصل بحياته الاجتماعية وسائر مكوناتها، فالتجديد اصطلاحا يتصل بالحضارة، وإذا كانت الحضارة هي نتاج تفاعل النشاط الإنساني مع سائر القوانين أو السنن الكونية في الفرد والمجتمع والطبيعة لأجل تطوير حياة الإنسان المعرفية والروحية والمادية في حياته الواقعية، يصبح التجديد الحضاري شرطا ضروريا لبناء الحضارة وسابقا عليها. فالحضارة هي كذلك بالتجديد ولا حضارة في غياب التجديد، بمعنى الانتقال بحياة الإنسان من وضعية راكدة جامدة إلى وضعية فيها جديد وفيها حضارة.

إنّ التجديد الحضاري يمثل كما رأينا شرطا ضروريا لوجود الحضارة لكن مفهوم التجديد تلازمه مفاهيم أخرى، يظهر من خلال المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي أنّه لا يقوم التجديد بدونها بحيث نجد بعضها يمثل شرطا سابقا عليه وبعضها يمثل عنصر ملازما له وبعضها يمثل نتيجة حتمية له.

إذا كان التغيير Changement في اللغة هو التحوّل والتبدّل ويعني عند "القاضي الجرجاني" "انتقال الشيء من حالة إلى حالة أخرى".[105]

وعند "التهانوي" يعني "كون الشيء بحال لم يكن له قبل ذلك".[106]

فالتجديد هو عملية تغير يجريها الإنسان على الأشياء فينشأ بها الجديد وينتجه أو يبدل شيئا ما من حالة إلى أخرى، فيصبح التغيير ضروري للتجديد، يحدثه ويشرف عليه ويظهر من خلاله، أما التحوّل Mutation فيرتبط بالتغيير والتجديد معا، فهو يعني في اللغة التبدّل والتغيّر والتنقّل "ونقطة التحول هي الحد الفاصل بين أمرين يكون الأمر الثاني أحسن حالا من الأول".[107] فالتحوّل "تغير يلحق الأشخاص أو الأشياء، وهو

---

105 – جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ص311.

106 – المرجع السابق: ص311.

107 جماعة من الباحثين: القاموس الجديد للطلاب، 176.

قسمان: تحول في الجوهر وتحول في الأعراض".[108] فالتجديد تحوّل يجرى من قبل الإنسان على ذاته وعلى محيطه.

ينتج التقدم عن التجديد والتقدم Anteriorite لغة السير إلى الأمام ومبارحة المكان أو الوضعية، والتقدم من الشيء يعني التقرب منه، وهو عند الفلاسفة تقدم بالطبع وتقدم في الزمان وفي الرتبة وتقدم بالشرف وبالعلة، وفي جميع الحالات يبقى التجديد ضربا من التقدم باعتباره ابتكار شيء أو تبديل شيء بشيء آخر، كما يظهر التقدم عند كل تجديد فهو نتيجة من نتائجه.

يرتبط مفهوم التجديد بمفهوم التطور، ولفظة التطور تدل على تحول الشيء من طور إلى طور، والطور في اللغة يعني الحال. وطوّر الشيء نقله من حالة إلى أخرى. ومعنى التطور لدى الفلاسفة متعدد، فهو النمو أو التبدل الموجه أو الانتقال من البسيط إلى المركب أو العكس، أو الارتقاء من الأدنى إلى الأعلى أو العكس، وكلمة الارتقاء تتضمن بالضرورة التبدل لكن ليس في كل تبدل ارتقاء، "وضد التطور التكوّر Involution وهو التّضام والتقبض والتقلّص والتراجع، ويطلق التكوّر في الاصطلاح على الرجوع إلى الأصول أو على الانحطاط والتأخر والفساد والانحلال والبلى".[109] من خلال هذه المواجهة بين التطور والتكور يتضح الارتباط الوثيق بين التجديد والتطور فهما مترادفان، إذ التطور يتضمن التجديد والتجديد يتضمن التطور ولا سبيل للفصل بينهما.

من جهة أخرى لا يحصل التجديد عند الإنسان في غياب قدرته على الإبداع، Creation فالإبداع شرط ضروري عليه يتوقف التجديد الحضاري، فكلمة إبداع في اللغة تدل على صناعة الشيء بإتقان أما الابتداع فيعني الاختراع والإنشاء أي اختراع الشيء وإنشائه، أي "إحداث الشيء على غير

---

[108] – جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ص 259.

[109] المرجع السابق: ص 295.

مثال سابق وعند البلغاء: اشتمال الكلام على عدة ضروب من البديع".[10]
للإبداع عدة معاني عند الفلاسفة، فهو إنشاء شيء جديد من عناصر قديمة. أو إيجاد شيء من اللاشيء مثلما هو الحال في الخلق الإلهي. أو إنشاء شيء لم يكن موجودا ويعرف بالصنع، والإبداع نوعان اختراع Invention واكتشاف Découverte، فالاختراع هو إنشاء شيء جديد لم يكن موجودا من عناصر قديمة، ويتعلق الأمر بإنشاء المصنوعات المادية وإنشاء الأفكار وتنظيم العمل ووسائل العمل، أما الاكتشاف فهو إطلاع الإنسان على الجديد المتقدم في الوجود كاكتشاف النار واكتشاف المعادن، واكتشاف "كريستوف كولومبس" لقارة أمريكا.

إنّ التجديد الحضاري فاعلية بشرية ترتبط بعدة فاعليات أخرى، هذه الفعاليات بعضها يمثل شرطا ضروريا لحصول التجديد الحضاري وهو قدرة الإنسان على الإبداع بشقيه الاختراع والاكتشاف، فلم يعرف التاريخ حضارة بدون اختراع ومخترعين واختراعات ولا بدون اكتشاف ومكتشفين ومكتشفات، فهناك حضارة الزراعة وحضارة التجارة وحضارة الصناعة والحضارة الحديثة والمعاصرة هي حضارة هذه المعطيات ككل، وأي مجتمع يخلوا من المبدعين في الجانب الفكري والجانب الاجتماعي والمادي فهو مجتمع يخلو من الحضارة وليس فيه تجديد حضاري، وأي مجتمع فيه إبداع وتحضر فيه التغير والتطور والتقدم والتحول وهي مفاهيم ترادف مفهوم التجديد الحضاري وتعبر عنه وتدل عليه.

إذا كان التجديد الحضاري مفهوم مركب من أمرين هما التجديد والحضارة فالتجديد كما سبق وأن عرفنا هو إنتاج الأشياء الجديد المعنوية والمادية، وبهذا فهو تطوير للأفكار وللعمل ووسائل العمل، يدخل هذا التجديد في إطار استراتيجية البناء الحضاري الذي تمثله الحضارة كظاهرة بشرية تاريخية اجتماعية للفرد الدور الكبير في إيجادها، وإذا كانت الحضارة هي انتقال الإنسان من حياة بسيطة بدائية إلى حياة مدنية مزدهرة تتوفر

---

[10] المرجع السابق: ص 31.

فيها شروط الحياة الإنسانية الراقية بما يكفل لكل فرد مطالبه وحاجاته في كل مرحلة من مراحل حياته، فإن التجديد الحضاري هو شرط ضروري سابق على كل حضارة ومن جهة أخرى فإن التجديد في الحضارة بعد قيامها أمر واجب لضمان قوة الحضارة واستمرارها، فالعلاقة بين التجديد والحضارة هي علاقة العلة بالمعلول والشرط بالمشروط والنتيجة بالسبب، إذ انه لا حضارة في غياب التجديد الحضاري ولا تطور في الحضارة ذاتها في غيابه أيضا، لكن الدورة الحضارية التاريخية حسب "مالك بن نبي" وغيره قد تصل إلى مرحلة في التجديد والتطور تفقد فيها الحضارة قوتها وقدرتها على الاستمرار أمام طغيان الترف والبذخ بفعل قوة الشهوة والغريزة، فتتعرض الحضارة إلى الانهيار وينطفئ نورها. إنّ فيلسوف الحضارة "مالك بن نبي" درس فلسفة التاريخ والحضارة عند العديد من المفكرين، كما درس التاريخ الإسلامي وواقع المسلمين في عصره، وتوصل في النهاية إلى عدة أفكار وأراء ومواقف شكّلت في الأخير نظريته في الحضارة، والحضارة عنده ليست شكل من أشكال التنظيم للحياة الإنسانية لأن هذا يجعل الحضارة حالّة في أي مجتمع من المجتمعات النامية أو المتخلفة وبالتالي يتساوى التحضر مع التخلف والضعف مع القوة وهذا غير مألوف في منطق التفكير السليم.

يتضح الفرق بين الحضارة واللاحضارة في كون الحضارة تضمن الهدف الذي لأجله يحيا الإنسان وهو أن يجد كل الدوافع وكل الضمان الضروري لوجوده، وهو يعيش وضعية تخلف وانحطاط وتواق إلى النمو والازدهار، مما يجعل الحضارة ذات وظيفة يحددها التعريف التالي: « فهي مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده من الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه".[111]

إنّ ميلاد حضارة ما أو نهضة تاريخية معينة لا يكون من صنيع الصدفة أو التلقائية، بل وفق خطة واستراتيجية محددة هي استراتيجية

---

[111]- مالك بن نبي: آفاق جزائرية، ص 46-47.

البناء الحضاري أو النهضة الحضارية، هذه الإستراتيجية تتحدد فيها بدقة المبادئ والوسائل والسبل والغايات في البنية الحضارية كما تتحدد نقطة الانطلاق ونقطة الوصول في الحركة النهضوية، والتجديد الحضاري يشكل المحرك في هذه النهضة وجوهر البناء الحضاري ولبه لأنه عملية تنفيذ الخطة المحددة في استراتيجية البناء الحضاري، كما يمثل من جهة أخرى مظاهر الحضارة وعلاقات تظهر في كل طور من أطوارها وفي كل عنصر من عناصرها، كما تظهر في مبادئها وسبلها ووسائلها وغاياتها ومنتجاتها بشكل عام.

لا شك أن تكوين الحضارة ونموها وقيامها لدى مجتمع ما وفي مرحلة تاريخية من مراحله كل هذا يتطلب تغيير في الأنفس والأفكار والأشياء وهذا لا يتأتي إلا بمجهودات تصدر عن إنسان يعيش التغير في نفسيته وذهنيته ويغير من أخلاقه وسلوكه كما يغير محيطه الاجتماعي والطبيعي، هذا التغيير في إستراتيجية البناء الحضاري والنهضة الحضارية هو ما يعرف بالتجديد الحضاري، فهو يمثل فاعلية إنسانية هادفة إلى الانتقال بالإنسان من مرحلة الانحطاط والضعف إلى مرحلة النمو والتحضر.

فتجديد المسلم لإيمانه باستمرار على العبادة ومراجعة العقيدة والتمسك بتعاليم الكتاب والسنة والاقتداء بالصحابة والامتثال لأوامر ونواهي الشرع هو تجديد حضاري، والصحوة التي يعرفها المسلم بعد الغفلة والانغماس في مغريات الدنيا والصحوة التي يعرفها الشباب التائه في الضلال أو التائه في الجهل ذلك من التجديد الحضاري، وحركة الإصلاح التي بادر بها عدد من المفكرين في العالم الإسلامي أمثال "جمال الدين الأفغاني" و"محمد عبده" و"عبد الحميد ابن باديس" وغيره هي من التجديد الحضاري، والثورة الجزائرية هي من التجديد الحضاري، وكل فعل فيه جديد يستهدف الوصول إلى التحضر هو تجديد حضاري ضروري ومطلوب في كل عصر وفي كل مصر.

كل نهضة وكل حضارة وكل صحوة حضارية تشترط التجديد الحضاري باعتباره تغيرا في الإنسان والمجتمع، هذا التغير يحدث الحضارة ويصنعها كما يعمل على تنميتها وتطويرها، فهو شرط البناء الحضاري وشرط تطور الحضارة، فالحضارة الإسلامية قامت بعدما غيّر المسلم نفسه وعقليته ومحيط المجتمع الجاهلي، وزوده بالطاقة الروحية والرغبة في البناء فدفعته تلك الطاقة الروحية إلى الجهاد والإعمار وإلى العلم والبحث فتكونت العلوم والفنون والصنائع، وتطور الحضارة الإسلامية أساسه التغييرات والتجديدات التي أدخلها المسلمون على حياتهم وبصورة تدريجية في المجالات الفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية ونتيجة لاحتكاكهم بثقافات وديانات الشعوب والأمم الأخرى.

فالتجديد الحضاري لا يكون وراء تكوين حضارة فحسب بل يكون كذلك شرط تطورها، وما دام التجديد هو إنشاء شيء جديد في الجانب المادي أو المعنوي فإن تطور الحضارة يعني تجديد جانبها المادي والمعنوي باستمرار، فمن العين المجردة إلى المجهر الضوئي "الميكروسكوب" إلى المجهر الإلكتروني وهكذا مع تطور وسائل النقل والاتصال. ومن طريقة الإلقاء والحفظ في التعليم إلى طريقة التعليم بالحوار وبالأهداف إلى طريقة التعليم بالكفاءات. كل هذا يؤكد الدور الذي تلعبه ظاهرة التجديد الحضاري ليس في تكوين الحضارة فحسب بل في تنمية مجالاتها وتطوير منتجاتها ومنجزاتها. وتطور العلوم بفضل تطور مناهج ووسائل ونتائج البحوث العلمية في الحضارة المعاصرة يدل على عدم استغناء أي مجتمع يريد الحضارة عن عوامل ومبررات التجديد الحضاري.

يتضح مما سبق أن التجديد الحضاري يكون سابقا على الحضارة كما يكون ملازما لها، لكن عند "مالك بن نبي" لا يتساوى التجديد الحضاري مع التكديس، فالتجديد الحضاري هو فاعلية ومبادرة تُغيّر الإنسان والأفكار والأشياء بما ينسجم مع القوانين والسنن في الطبيعة والإنسان لتوفير جميع الدوافع والشروط لتحقيق الوجود الإنساني، أما تكديس المنتجات من

خلال استيرادها من حضارات أخرى فهذا يتنافى مع التجديد الحضاري والتحضر "إنّ المقياس العام في عملية الحضارة هو أن "الحضارة هي التي تلد منتجاتها" وسيكون من السخف والسخرية حتما أن تعكس هذه القاعدة، حين نريد أن نصنع حضارة من منتجاتها".[112]

إنّ التاريخ يؤكد أن للحضارة عمر ميلاد ونهضة وأوج وأفول، وكل طور من هذه الأطوار يقوم بفعل ظاهرة التجديد الحضاري، وكذلك بالنسبة للانتقال من طور إلى آخر، وعليه يُعتبر التجديد الحضاري سببا في أفول الحضارة، لأن المجتمع يصل إلى مرحلة فيها من التجديد ما يكبح دور الروح والعقل ويطلق العنان للشهوات والملذات فيغرق المجتمع في الترف والبذخ وينتظر ليل اللاحضارة.

فالتجديد الحضاري فعل إنساني مرتبط بقدرة الإنسان على الإبداع وإرادته في ذلك في مختلف المجالات يدخل في استراتيجية البناء الحضاري ككل بل هو جوهرها وروحها، ويكون وراء أي نهضة حضارية كما يلازم جميع أطوار الحضارة وقد يكون سببا في أفولها.

ومدلول التجديد الحضاري يأخذ عدة معاني ودلالات في فكر "مالك بن نبي"، فهو بمعنى البناء الحضاري إذ يحتاج إليه ميلاد أي حضارة، كما يعني تطور الحضارة واستمرارها وقد يكون سببا في أفولها كما تؤكد بحوث ودراسات تاريخ الحضارة، ويأتي بمعنى الإصلاح وإزالة المفاسد والعودة إلى حقل الحضارة، كما يعني البعث والإحياء، وهو في جميع الحالات شرط لقيام الحضارة وبناء المجتمع وتطويرهما والمحافظة على بقائهما.

ب- أبعاد التجديد الحضاري:

لكل موضوع يقوم بوظيفة في حياة الفرد والمجتمع أبعاد يرتبط بها تمثل دوافعه ومبرراته كما تشكل أهدافه والغايات التي وجد لأجلها، وبعد أي شيء يتعلق بوظيفته وأسباب وجوده القبلية والغائية، وللتجديد الحضاري

---

[112]– مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 61.

عند "مالك بن نبي" أبعاد مختلفة تتعرف عليها في هذا المطلب يقول الله سبحانه وتعالى:﴿ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾.[113]

يتضح من الآية الكريمة أنّ الله خلق الإنسان وبقية المخلوقات الأخرى وخصّ الإنسان وحده بالتكريم والتفضيل، فوهبه العقل والقدرة على الإبداع والتجديد، أي القدرة على بناء الحضارة، ومن هنا يتجلى البعد الإنساني في الحضارة والتجديد الحضاري. إنّ الإنسان متميز عن غيره بالعقل واللّغة والإبداع، وهي عناصر لا يتم التجديد الحضاري إلا بها، فأقوى سلاح يملكه الإنسان هو سلاح العقل الذي يستعمله في الخير كما يستعمله في الشر، والحضارة تطلب الخير وتنمو في مساره لهذا استُقبح الشرُّ لأنه تحطيم للحضارة وهدم للتجديد الحضاري الذي هو شرطها.

لقد وُهب الإنسان الشروط التي تضعه في أعلى درجة في هرم المخلوقات من خلال امتلاكه لكافة عوامل وعناصر التحضر، فهو ينشأ الحضارة بالعقل والقدرة على الإبداع وله القدرة في أن يتأثر بغيره ويؤثر في غيره من خلال استعماله للغة وسيلة التواصل. فالطبيعة البشرية وما تتوفر عليه من دوافع فيزيائية ونفسية وعقلية وأخلاقية واجتماعية هذه الدوافع تتحول إلى فاعليات قوية تخط طريقها نحو التجديد الحضاري، فتصبح الحضارة ظاهرة إنسانية تكرس رسالة الإنسان في هذا الوجود كما تميزه عن غيره من المخلوقات التي لا تشهد الحضارة إطلاقا، وهي من خلال عناصرها وشروطها ومنتجاتها تجسد القيّم الإنسانية هذه القيّم لا تكون في غير العالم الإنساني مثل التفكير، الحرية، التعاون، التحضر إلى آخره. وانهيار الحضارة يعني انهيار القيّم الإنسانية وسقوط الإنسان إلى مرتبة تسيطر فيها الأهواء والشهوات والملذّات لا خصوصيات الإنسان الروحية والعقلية والاجتماعية. فالتجديد الحضاري ذو أبعاد إنسانية في منطلقاته ومبادئه وشروطه وعوامله وفي إنجازاته ونتائجه على الفرد والمجتمع معا.

---

[113]– قرآن كريم: سورة الإسراء، الآية 70

عندما نفصل البعد الإنساني في التجديد الحضاري عند الأبعاد الأخرى لا يعني أن هذه الأخيرة ليست أبعادا إنسانية، فقط التحليل المنهجي النظري يقتضي منا أن نعددها ونفصل فيما بينها فبقية الأبعاد كلها إنسانية ومنها البعد التاريخي.

إنّ التجديد الحضاري ينطلق ويبدأ في بناء الحضارة عندما يتحرك الإنسان ليدخل إلى التاريخ، لأنّ التجديد الحضاري حركة إنسانية تنطلق من نقطة ما لتصل إلى أخرى داخل مجال التاريخ، فالتاريخ هو الذي يسجل هذه الحركة منذ انطلاقها ويسجل مراحلها وكل ما يصيبها ويطرأ عليها من تغيرات إلى غاية وصولها "من الملاحظات الاجتماعية أن للتاريخ دورة وتسلسل، فهو تارة يسجل للأمة مآثر عظيمة ومفاخر كريمة وهو تارة أخرى يلقى عليها دثارها ليسلمها إلى نومها العميق".[114]

فمن خلال التاريخ يمكن للإنسان أن يحدد مكانته في الدورة التاريخية بل في الحياة ككل ويدرك أسباب التخلف والانحطاط وعوامل النمو والنهضة، كما يعرف أسباب الحياة والموت في الحضارة الواحدة، فيصبح التاريخ بهذه الأهمية والوظيفية أداة تقويم للذات وللغير، فهو يمد الإنسان بالمعايير اللازمة للوصول إلى الحقيقة فيما يخص التجديد الحضاري من حيث شروطه وعوامله والحضارة من حيث عوامل قيامها وأسباب انهيارها.

شهدت الإنسانية عبر تاريخها الطويل عدة حضارات واستقراء هذه الحضارات يثبت أن قوة الحضارة مشروط بالانسجام بين جهد الإنسان وغاياته العليا وحاجاته، أما ضعف الحضارة وانحلالها سببه تحلل الإنسان في فكره وسلوكه "فالتاريخ يبدأ بالإنسان المتكامل الذي يطابق دائما بين جهده وبين مثله الأعلى وحاجاته الأساسية والذي يؤدي في المجتمع رسالته المزدوجة كممثل أو كشاهد ... وينتهي التاريخ بالإنسان المتحلل... ".[115]

أي حضارة من الحضارات ماضية أو حاضرة أو تكون في المستقبل تتكون بفعل التجديد الحضاري الذي يتفرد به الإنسان في مرحلة من

---

[114]- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 69.

[115]- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 28.

المراحل التاريخية، والتاريخ هو الذي يسجل هذه المرحلة والنهضة الحضارية، التي شهدتها من البداية إلى النهاية، وميلاد الحضارة وميلاد التجديد الحضاري لا يكون بالصدفة ومن العدم بل من معطيات تاريخية سابقة، كما تتخطى الحضارة الحدود المحلية لتصير أممية أو عالمية، وكل هذا يجري أمام التاريخ يحيط به ويسجله، فالتاريخ هو الإنسان والحضارة والتجديد الحضاري، تمثل المعطيات التاريخية لأي نهضة حضارية شروطا وأسبابا تنتج النهضة والتجديد والحضارة، وهي أسباب مرتبطة بالفرد ككائن له تأثير على المجتمع كما يتأثر بالمجتمع، والفرد له ذات زاخرة بالميول والرغبات والأهواء والعواطف، تبدأ الذات بطابع فردي خاص ثم تشق طريقها داخل المجتمع فتصبح حاجات ومطالب اجتماعية، وما رغبة الإنسان في تغيير حياته ونمط عيشه نحو الأحسن إلا ضرب من الرغبة التي تحرك الإرادة فتتحرك سائر القوى الذهنية والنفسية ومعها القوى العضوية فيحصل التجديد، حتى أن البعض يرى أن العنصر الانفعالي هو الخميرة التي لا يتم الإبداع إلا بها، كما نجد البعض يؤكد على أن العمل الإبداعي ينتج عن حالة من الانفعال لا يمكن التعبير عنها.

ليس موضوعنا هنا هو الشروط النفسية للإبداع لدى الإنسان إنما هو الإطار النفسي الذي ينتج فيه التجديد الحضاري وتتكون فيه الحضارة في مرحلة تاريخية ما تعرف بالتاريخ في دورة من دوراته، هذه الحضارة يلعب في بنائها الفرد في صلته بمجتمعه وفي علاقته بالتاريخ دورا رئيسيا.

أي تجديد في الحضارة هو من صنع أسباب وعوامل نفسية زمنية تاريخية "وعلاج أي مشكلة يرتبط بعوامل زمنية نفسية ناتجة عن فكرة معينة تؤرخ من ميلادها عمليات التطور الاجتماعي".[116] فالحضارة الإسلامية لها عواملها النفسية والحضارة المسيحية لها عواملها النفسية وهكذا مع بقية الحضارات الأخرى.

---

[116]- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 70.

إنّ الشروط النفسية تكون وراء أي حضارة كما تلازمها وهي تنجز وتصنع منتجاتها، وتمثل هذه الشروط كذلك غايات وأهداف الحركة التاريخية لأن إستراتيجية التجديد والبناء الحضاريين تقوم على التخطيط وربط المبادئ والأفكار بالأهداف والغايات، هذه المبادئ والغايات نابعة من الفرد الطموح إلى الحضارة، "وهكذا تتجلى لإفهامنا حقيقة جوهرية في التاريخ هي "دورة الحضارة" وكل دورة محددة بشروط نفسية زمنية خاصة بمجتمع معين فهي حضارة بهذه الشروط".[117] فالتجديد الحضاري يشترط العوامل النفسية في أي دورة حضارية .

تحتاج النهضة في حياة أي أمة إلى شروط تاريخية نفسية واجتماعية، والشروط النفسية تكون في البداية ذات طابع ذاتي خاص ثم تتبلور وتشق طريقها داخل المجتمع فتصبح ذات طابع اجتماعي. وبعض الشروط التاريخية يفرضها الاجتماع البشري وشبه العلاقات الاجتماعية والحياة داخل المجتمع، فدعوة "الرسول صلى الله عليه وسلم" إلى الإسلام بدأت من بيته ثم انتشرت في جميع بقاع الكرة الأرضية، ودعوة "كارل ماركس" إلى الاشتراكية بدأت كفكرة نادى بها صاحبها ثم صارت عقيدة يؤمن بها ويدعوا إليها الكثير، هذه من جهة ومن جهة أخرى نجد الحياة في المجتمع تقتضي النظام وأشكال أخرى من العلاقات والأنشطة مثل المعاهدات والاتفاقيات وتقسيم العمل والتعاون وغيره، وهذا يعني أن التجديد الحضاري في أي نهضة تاريخية يشترط جملة من العوامل الاجتماعية بعضها نابع من أفراد المجتمع وبعضها صادر عن المجتمع ذاته، وفي الحالتين معا الحضارة مشروطة بعوامل اجتماعية وتحقق غايات اجتماعية كما تلازم المجتمع بكافة معطياته.

إنّ البعد الاجتماعي لأي تجديد حضاري ولأية حضارة يحدد بحاجة الفرد إلى الاجتماع الإنساني، فالفرد قوي داخل الجماعة ضعيف خارجها، فهو لا يستطيع أن يوفر لنفسه كل ما يحتاج إليه من ضروريات وكماليات ولا يقدر على بناء الحضارة بمفرده، وبالمقابل فالاجتماع البشري في حاجة إلى الفرد

---

[117] - مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 23.

لان الاجتماع ذاته هو اجتماع أفراد يجمعهم حاضر واحد ومصير واحد، فتتوحد الجهود وتتحدد الغايات والسبل والوسائل وتتحد لضمان حياة اجتماعية، هذه الحياة الاجتماعية في حاجة إلى علاقات تنظم حياة الأفراد داخل الاجتماع، فيصبح الاجتماع في حاجة إلى النظام فيتشكل المجتمع، والمعنى الأدبي الذي يعطيه القاموس للمجتمع هو"تجمع أفراد ذوي عادات متحدة، ويعيشون في ظل قوانين واحدة، ولهم فيما بينهم مصالح مشتركة".[118]

للوقوف أكثر على ماهية المجتمع باعتباره بعدا أساسيا من أبعاد الحضارة ضرورة ربطه بالزمن أي التاريخ والشروط النفسية والاجتماعية، فيصبح المجتمع هو"الجماعة التي تغيّر دائما خصائصها الاجتماعية بإنتاج وسائل التغيير، مع علمها بالهدف الذي تسعى إليه من وراء هذا التغيير".[119]

والواقع أنّ حركة المجتمع التي تحدث التغير والتطور تمثل حركة التجديد الحضاري في التاريخ، هذه الحركة هي التي تبني المجتمع وتصنع الحضارة وتحدث التطور التاريخي، وحركة المجتمع تميز بين المجتمع وأشكال الجماعات الإنسانية التي لا توصف بالمجتمعات التاريخية الحضارية، فهي "تكسب الجماعة الإنسانية صفة "المجتمع" عندما تشرع في الحركة أي عندما تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غايتها وهذا يتفق من الوجهة التاريخية مع لحظة انبثاق حضارة معينة".[120]

يتضح مما سبق أنّ الحضارة تشترط المجتمع والمجتمع يشترطها، وانهيار حضارة أي مجتمع هو انهيار للخصوصيات التي يتميز بها هذا المجتمع، وأي اجتماع بشري بدون حضارة يغلب عليه الطابع البدائي ويسوده قانون الغاب وتحكمه الهمجية، فالحضارة هي التي تحمي المجتمع من الهمجية، ويؤيد تاريخ الحضارات ما يذهب إليه "مالك بن نبي"، فالعرب في الجاهلية كانوا بدوا رحلا تسيطر عليهم الوثنية والنعرة القبلية ووأد البنات وغيرها من العادات

---

[118]- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص 13.

[119]- المرجع السابق: ص 15.

[120] المرجع السابق: ص 16.

الفاسدة، فإذا بالإسلام يبعث فيهم روح التآلف ويدفعهم إلى التحضر، فكان لهم ما هو معروف من حضارة، ففي مجتمع الحضارة يتوفر مناخ الحرية والحماية للفرد، وتقدم الحضارة لأبنائها كل ما يحفظ وجودهم ويقيهم من الانحدار في مختلف مجالات الحياة الفكرية والاقتصادية".[121]

فالتجديد الحضاري حركة تشترط المجتمع لتنطلق داخله فتغيره وفق إستراتيجية تتحدد فيها المبادئ والغايات، والمجتمع لا يتطور ولا يحافظ على حياته ولا يشهد الحضارة ولا يعرف التجديد الحضاري إلا بفعل هذه الحركة.

الواضح أن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يملك القدرة على التقييم والتقدير استنادا إلى جملة من القيّم والمعايير بعضها رفيع وبعضها وضيع، وهذه القيّم والمعايير متعددة ومتنوعة، منها القيّم الأخلاقية والقيم الجمالية، والتطور الذي شهده الفكر الإنساني والبحوث المتعددة في هذا المجال نظر الفكر إلى هذه القيّم ودرسها فظهرت جملة من العلوم المعيارية منها علم الأخلاق وعلم الجمال،وعلم المنطق وغيره، وموضوعنا ليس هو هذه العلوم وإنّما البعد الأخلاقي الجمالي للتجديد الحضاري.

تؤكد دروس تاريخ الحضارة أنّ كل حركة تجديد حضاري تنطلق داخل المجتمع والتاريخ بتوجيه أخلاقي وضوابط أخلاقية، فالمجتمع في حاجة إلى قوة تماسك لأفراده لممارسة التجديد الحضاري وبناء الحضارة، ويحصل التماسك لدى الفرد بفعل الغريزة أما المجتمع التواق إلى الحضارة الناهد إلى الرقي والسمو فإنه يستعمل الغريزة نفسها، "ولكنه يهذبها ويوظفها بروح خلقي سامي، هذا الروح الخلقي منحة من السماء إلى الأرض، يأتيها مع نزول الأديان عندما تولد الحضارات ومهمته في المجتمع ربط الأفراد بعضهم ببعض".[122] ويستشهد "مالك بن نبي" على هذه الفكرة بقوله تعالى: ﴿وألّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألّفت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم إنّه عزيز حكيم﴾.[123]

---

[121]- أسعد السحمراني: مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، ص 143-144.

[122]- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 11.

[123] قران كريم: سورة الأنفال، الآية 63.

يبيّن لنا "مالك بن ني" البعد الأخلاقي للتجديد الحضاري والحضارة من خلال ما يلي:

"1- إنّ مجتمعا معينا لا يمكن أن يؤدي نشاطه المشترك دون أن توجد فيه شبكة العلاقات التي تؤلف عناصره المختلفة النفسية والزمنية.

2- وأنّ كل علاقة هي في جوهرها قيمة ثقافية يمثلها القانون الخلقي والدستور الجمالي الخاص بالمجتمع".[124]

فالقانون الخلقي تتضمنه العلاقة الاجتماعية التي هي في جوهرها قيمة ثقافية، وجد القانون الخلقي لأجل بناء المجتمع والمحافظة على تماسكه وإدخاله في التاريخ من خلال تمكينه من التجديد الحضاري وتكوين الحضارة وتحريك التاريخ، "وكلما حدث إخلال بالقانون الخلقي في مجتمع معين حدث تمزق في شبكة العلاقات التي تتيح له أن يصنع تاريخه".[125] فقوة التماسك التي أوجدتها العلاقة الاجتماعية المتضمنة للقيم والقوانين الأخلاقية الإسلامية هي جعلت المهاجرين والأنصار يصلون إلى درجة التآخي والإيثار فيعرض الرجل في المجتمع الجديد على أخيه "أن ينكحه من يختار من أزواجه بعد أن يطلقها له، كي يبني بذلك أسرة..؟؟ ".[126]

إنّ قوة التماسك بين أفراد المجتمع الواحد الناشئة عما تفعله القوانين الأخلاقية داخل المجتمعات يقدم صورة جمالية تختلف عن تلك الصورة التي يظهر عليها مجتمعا ممزقا في طريقه إلى الأفول، فالقبيح لا يوحي بالخيال الجميل، والجمال يمثل أحد مكونات المنظومة الثقافية، والثقافة تمثل المحيط الذي يعكس حضارة المجتمع، "والإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال بل إنّ الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أيّة حضارة".[127] والجمال ينبغي أن يشاهد في المجتمع المتحضر في جميع الأماكن والمجالات، في الشارع

---

[124]- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص 45.

[125]- المرجع السابق: ص 49.

[126]- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 114.

[127]- المرجع السابق: ص 120.

والبيت والسينما والمسرح، وقيمة الجمال تكبر في عين "مالك بن نبي" فهو عنده "وجه الوطن في العالم، فلنحفظ وجهنا، لكي نحفظ كرامتنا ونفرض احترامنا على جيراننا الذين ندين لهم بنفس الاحترام".[128]

نستنتج مما سبق أن التجديد الحضاري مشروط بجملة من القيّم الأخلاقية والجمالية تشكل عوامل تحرُّك التاريخ وتبني الحضارة، وهذا يتطابق مع ما يدعوا إليه الإسلام فالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بُعث لإتمام مكارم الأخلاق، والله يقول : ﴿إنك لعلى خلق عظيم﴾.[129] كما اعتنى الإسلام بالبعد الجمالي في حياة الفرد والمجتمع والأمة، ويظهر ذلك بوضوح من خلال التأكيد على طهارة النفس والبدن والمحيط.

إنّ النتيجة التي انتهينا إليها بعد تحديد البعد الأخلاقي والبعد الجمالي للتجديد الحضاري والحضارة تؤكد أن وراء البعدين بعد آخر يمثل الأرضية والمرجعية لجميع الأبعاد المختلفة حسب "مالك بن نبي" وهو البعد الروحي الديني، فالعلاقات الاجتماعية المتضمنة للقيم والقوانين الأخلاقية وحتى الجمالية هي من صنع علاقة روحية بين الله وبين الإنسان، وهي التي تكون وراء ميلاد أي مجتمع يدخل التاريخ ويصنع التجديد الحضاري ويبني الحضارة "فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء، يكون للناس شريعة ومنهجا".[130]

والحضارة الإسلامية من إنتاج الوحي الإلهي، الذي هبط من السماء على "محمد صلى الله عليه وسلم" فكان ذلك الوحي شريعة ومنهاجا سار عليه المسلمون ولازال حتى الآن.

يؤيد "مالك بن نبي" فيلسوف الحضارة والتاريخ "كسرلنج" في أن دورة الحضارة تبدأ حينما تدخل التاريخ فكرة دينية أو مبدأ أخلاقي ما، وتنتهي هذه الدورة عندما تفقد روحها تماما وتفقد ذلك السلطان الذي كان لها على

---

[128]- المرجع السابق: ص 121.

[129]- قرآن كريم: سورة القلم، الآية 4.

[130]- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 75.

الشهوات والغرائز المكبوحة، فالحضارة المسيحية وليدة الروح المسيحية والحضارة الإسلامية وليدة الروح الإسلامية وهكذا مع بقية الحضارات للأخرى.

إنّ الفكرة الدينية تشترط سلوكا لدى الإنسان به يكون قادرا على أداء الرسالة، ودوره لا يقف عند بعث التجديد الحضاري ودفع معتنقيها إلى الحركة في التاريخ وتشكيل الحضارة بل تعمل على ضمان استمرار هذه الحضارة وحمايتها من عوامل وأسباب الإنهيار والأفول. "فهي تحل لنا مشكلة نفسية اجتماعية أخرى، ذات أهمية أساسية تتعلق باستمرار الحضارة، فالمجتمع لا يمكنه مجابهة الصعوبات التي يواجهه بها التاريخ ما لم يكن على بصيرة جلية من هدف جهوده".[131]

غير أنّ نجاح النشاط الاجتماعي مرهون بالغاية التي لأجلها يحيا الإنسان ولأجلها وجد المجتمع، فإذا كانت الفكرة الدينية تشترط السلوك الفردي ليقوم الفرد برسالته ويبني حضارته في التاريخ فإن ارتباط الأفراد بغاية ما يصنع في قلوبهم الرغبة في البناء والتجديد ويمنحهم الإرادة القوية لفعل ذلك وتصبح مع ذلك "الحياة ذات دلالة ومعنى وهي حينما تمكن لهذا الهدف من جيل إلى جيل ومن طبقة إلى أخرى فإنها حينئذ تكون قد مكنت لبقاء المجتمع ودوامه وذلك بتثبيتها وضمانها لاستمرار الحضارة".[132]

يؤكد "مالك بن نبي" أنّ المشكلات المرتبطة بالحضارة وبالفرد وبالمجتمع هي مشكلات نفسية واجتماعية متصلة بعلم النفس الفردي والاجتماعي مثلتها الفكرة الإسلامية منذ ثلاثة عشر قرنا من الزمن.

فالتجديد الحضاري "عند مالك بن نبي" امتداد لأبعاد كثيرة ومختلفة وهي إنسانية ونفسية واجتماعية وأخلاقية وجمالية وهذه الأبعاد كلها ذات طابع روحي ديني تعود إلى بعد روحي، يكون ورائها يصنعها جميعا ويحرك التجديد الحضاري ويضع الإنسان في التاريخ ويمكنه من بناء الحضارة ويحافظ

---

[131]- المرجع السابق: ص 107.

[132]- المرجع السابق: ص 109

على استمرارها ويحقق الوجود الإنساني بتحقيق غاياته القريبة والبعيدة وهي غايات الإسلام ومبتغاه ومقصده.

ج- شروط التجديد الحضاري:

إنّ المشكلة الأم في حياة الإنسان والأمة عند "مالك بن نبي" هي مشكلة الحضارة، و"إنّ مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته".[133] وشروط حل هذه المشكلة هو الارتقاء بالفكر إلى درجة الوقائع الإنسانية ذات الطابع العالمي للإلمام بشروط النهضة والتحضر وأسباب التخلف والانهيار،"ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكره إلى الأحداث الإنسانية وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبنى الحضارة أو تهدمها".[134]

إنّها العظمة حينما يدخل شعب التاريخ ويؤذن له بفجر جديد من الارتقاء في سبيل المدنية، يُبعث ليشكل حضارة في سلسلة الحضارات،"وما أهولها من ساعة حينما تعلن غروب أخرى".[135] وحضارة أي شعب تمثل حلقة في سلسلة الحضارات، تجسد جهود وأعمال الشعوب باعتبارها أجيال متعاقبة متصلة فيما بينها في سبيل الرقي والتقدم، فما هي شروط هذا الرقي وهذا التقدم؟.

إنّ السؤال المطروح يرتبط أصلا بالتجديد الحضاري لأن أي رقي أو تقدم لأي شعب ما لم يعرف الحضارة أو متحضر خرج من الحضارة لا يجري خارج التجديد الحضاري الذي يكون قبل الحضارة أو خلالها وبعدها، فهو يعني التغيير الذي يطرأ على الإنسان الذي لم يعرف الحضارة فيلهمه الشروط الكافية لبناء الحضارة.

هذه الشروط ضرورية لميلاد أي حضارة، كما يعني سائر التغيرات والتطورات التي تجري في مجتمع متحضر غايتها ترقية الحضارة والمحافظة على استمرارها بتجنيبها الفساد والزوال، وما دام الفساد يتسرب إلى المجتمع وإلى

133- المرجع السابق: ص 23.

134- المرجع السابق: ص 23.

135- المرجع السابق: ص 23.

حضارته فيقوم التجديد الحضاري بإصلاح الأوضاع لا لرد المعطيات إلى نصابها فحسب بل تشخيص الفساد وأسبابه وتحديد المبادئ والغايات والسبل والوسائل المناسبة والمتاحة لإزالة الفساد وتجاوزه، ونجد الكثير من الشعوب التي لا تزال تعيش على ما تركه أسلافها، ومهمة التجديد الحضاري لا تنحصر في البحث عن التجديد والسعي وراءه بل في إحياء القديم وبعثه وتكييفه مع المستجدات، فالتجديد الحضاري بمعانيه المحددة سابقا يمثل جوهر الحضارة ومحركها وجوهر التاريخ ومحركه.

فالتساؤل يطرح حول التجديد الحضاري من حيث شروطه، هذه الشروط متعددة لكنها تتماسك في وحدة عضوية بفعل المجهود الإنساني، هذا التماسك يفضي إلى معطيات جديدة في الفكر والمجتمع والحياة عامة فتشرق شمس النهضة الحضارية بنورها – ميلاد حضارة - ويعيش الإنسان المدنية، هذه المدنية تبقى في حاجة دائمة إلى تطوير، وتحديد معطياتها وأوضاعها بما ينسجم مع "سنن الآفاق والأنفس والهداية، من أجل الرقي المعرفي والروحي والسلوكي والعمراني في عالم الشهادة".[136]

والتجديد يصبح ضروريا لميلاد الحضارة وضروريا لتطوير مغزاتها وارتقائها وشروط هذه العملية خاصة ومرتبطة بشروط البناء، ونفس الشيء بالنسبة للإصلاح والإحياء والبعث.

بالنسبة لشروط التجديد الحضاري أو البناء الحضاري محددة في سائر كتابات "مالك بن نبي" خاصة في كتابه "شروط النهضة" نذكرها وهي خمسة، العناصر الأولية ويسميها "مالك بن نبي" «العدة الدائمة»، العامل الروحي، التغيير، البناء لا التكدس، والتوجيه. أما شروط الارتقاء داخل الحضارة وإصلاح المجتمع المتحضر وإحياء الحضارة كل هذا يشترط الشروط الخمسة كما يقتضي عوامل أخرى كل حسب طبيعته والظروف المحيطة به والشروط الخمسة نتناولها كما يلي:

---

[136] - الطيب بن غوث: موقع المسألة الثقافية من استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، ص 10.

العناصر الأولية:

الثروة الأولية لإنسان يرغب في شق طريقه نحو النهضة والحضارة والمدنية، وهي ما يعرف عند "مالك بن نبي" «بالعدة الدائمة» تتكون هذه الثروة الإنسانية من الإنسان والتراب والوقت، "وهكذا لا يتاح لحضارة في بدئها رأسمال،إلا ذلك الرجل البسيط الذي تحرك والتراب الذي يمده بقوته الزهيد حتى يصل إلى هدفه والوقت اللازم لوصوله".[137] والعدة الدائمة ميراث الإنسان والتاريخ والمجتمعات ليست حكرا لأحد، وهي ليست من منجزات أو منتجات الحضارة بل الحضارة تتكون وتتركب منها، فالقصور والدور ووسائل النقل والاتصال المتطورة هي منجزات الحضارة لا من العناصر الأولية.

إذ كان الإنسان غير قادر على التخلي عن طبيعته الاجتماعية والمدنية فهو لا يمكن أن يُفرّط في العناصر الثلاثة التي تمثل رأسماله الأولي لتحقيق وجوده الاجتماعي والمدني، وإن كان قادرا على الاستغناء عن منتجات الحضارة ومنجزاتها مؤقتا.

إنّ الشعوب التي شاركت في الحرب العالمية الثانية قوّمت خسارتها في الحرب ليس بالذهب بل بساعات العمل "أي بقيّم من الوقت ومن الجهود البشرية ومن منتجات التراب تلك هي القيم الخالدة التي نجدها كلما وجب علينا العودة إلى بساطة الأشياء أي في الواقع كلما تحرك رجل الفطرة وتحركت معه حضارة في التاريخ".[138] فالحضارة بسائر منجزاتها ومنتجاتها الفكرية والمادية تُرد في أصلها إلى "العدة الدائمة"، وأي منتوج حضاري هو حصيلة تآلف بين العناصر الأولية الثلاثة، فالمصباح الذي نستعمله في الإنارة هو منتوج حضاري أنجزته جملة من الأفكار تطورت مع الزمن عند الإنسان الذي يمثل العنصر الأول الذي يدخل في إطار التدخل البشري الفكري واليدوي ابتداء من أول إنسان فكر في المصباح وصنعه إلى

---

[137]- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 89.

[138]- المرجع السابق: ص 90.

"إديسون" مخترع المصباح الكهربائي، أما التراب فهو العنصر الثاني فيمثل المادة الأولية التي تقوم بمهمتي الوصل أو العزل والزمن هو الذي تجري فيه عملية الإنجاز والبناء لأي ناتج حضاري.

فالعناصر الأولية الثلاثة الإنسان التراب والوقت كل منها يمثل نوعا يتحدد بماهيته، أي بجملة الصفات الجوهرية المشتركة بين مجموعة من الكائنات، فالإنسان نوع يتحدد بوجوده النفساني العاقل الاجتماعي الروحي والأمر هنا يشمل كافة أفراد الإنسان، والتراب نوع يمثل مادة أولية حالّة في الطبيعة توظف في بناء الحضارة، أما الوقت فهو نوع يمثل أي زمن تجري فيه الأحداث الإنسانية ويتحرك فيه المجتمع داخل التاريخ وتتكون في مجاله الحضارة، "فمالك بن نبي" قد انتهى من ترتيب المعادلات في تكوين المنتجات الحضارية إلى "مجموعة منتجات حضارية = مجموعة إنسان + مجموعة تراب + مجموعة وقت، ولكن جمع منتوجات حضارية هو الحضارة نفسها في صورة غير مركبة، وجمع إنسان هو الإنسان نوعا وجمع تراب هو التراب نوعا وجمع الوقت هو الوقت نوعا".[139] كما يؤكد في تحليله لمشكلة الحضارة ولاعتبارات اجتماعية أنّ حلّها يستوجب "حل ثلاثة مشكلات جزئية:

1- مشكلة الإنسان وتحديد الشروط لانسجامه مع سير التاريخ.

2- مشكلة التراب وشروط استغلاله في العملية الاجتماعية.

3- مشكلة الوقت وبث معناه في روح المجتمع ونفسية الفرد".[140]

الفكرة الدينية:

إذا كان الفرد في حاجة إلى الجماعة لتستقيم حياته، والاجتماع الإنساني في حاجة الأفراد ليضمن قيامه وسيره إلى الأمام فهو في أمس الحاجة إلى النظام ليحقق وجوده واستمراره، وهذه الاجتماع يظهر في صورة مجتمع يبقى في حاجة كبيرة إلى عقيدة موحدة تنشئ العلاقات والقيم

---

[139]- مالك بن نبي: تأملات، ص 197-198.

[140]- المرجع السابق: ص 199.

الأخلاقية وتبث في أفراد المجتمع الشعور المشترك بحاجة الافراد إلى بعضهم البعض وبوجود رسالة ووظيفة في مستوى الفرد وفي مستوى الجماعة وفي مستوى الأمة، وبوجود مبادئ وغايات لا تضمن وجودها إلا بالوسائل والسبل المناسبة، فتكون هذه العقيدة الموحدة هي الدافع إلى النهوض بالرسالة والوظيفة داخل المجتمع، فيبدأ التاريخ وتنطلق الحضارة، فالتاريخ يصنعه الإنسان والحضارة إنتاج إنساني في التاريخ وهذا الصنع وهذا الإنتاج من فعل الإنسان بدافع من الفكرة الدينية.

فالعقيدة تغذي الروح مثلما يتغذى الجسم من الأشربة والأطعمة، والحضارة في طورها الأول تشترط عوامل روحية دينية تكون وراء كل تجديد في النهضة الحضارية، وهو الأمر في الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية والحضارة البوذية وغيرها، تعلق المسلمون الأوائل بالإسلام وبالفكرة الدينية وكانوا في جاهلية تعلقا – وهو تعلق له أسباب ودوافع – لم يسمح لتقاليد وأحكام وأفعال الجاهلية المردودة مثل وأد البنات، والزنا والوثنية والعصبية بأن تقف في وجه الفناء الروحي في تعاليم القرآن وسنة "الرسول صلى الله عليه وسلم" وبذلك بزغت شمس الحضارة وسطع نور النهضة في صحراء العرب القاحلة وعند رجل الفطرة الذي لا يعرف سوى الحل والترحال بحثا عن الكلأ لعياله وأنعامه.

يرى "مالك بن نبي" أنّ الحضارة ليست وليدة الجغرافيا والمناخ في صورة التحدي والاستجابة ولا العامل الاقتصادي بل تصنعها فكرة دينية ومبدأ أخلاقي من خلال التأليف والتوحيد بين عناصرها الثلاثة الإنسان التراب والوقت فتشكل الفكرة الدينية المركب في كل تجديد حضاري أو نهضة حضارية فهي "تتدخل إما بطريقة مباشرة وإما بواسطة بديلاتها اللادينية نفسها في التركيبة المتآلفة لحضارة ما وفي تشكيل إرادتها".[141] وإذا كان للحضارة عمر كعمر الطفل فإن المهد الذي تولد فيه هو الفكرة الدينية.

الحضارة حسب "مالك بن نبي" تشهد ثلاث أطوار، طور النهضة والميلاد وطور الازدهار والأوج وطور الفساد والأفول، أما الطور الأول فهو

---

[141] -- مالك بن نبي: آفاق جزائرية، ص 83.

روحي تنتظم وتنضبط فيه الغرائز تحت سلطان الروح بتوجيه من الفكرة الدينية، ويتطور المجتمع الذي أنجبته الفكرة الدينية في المرحلة الثانية بفعل اكتمال روابطه الاجتماعية وبمدى انتشار الفكرة الدينية في العالم فتبرز المشاكل وتكثر المطالب وتكون النتيجة التالية: فإما أن يكون هناك تطابق "مع النهضة كما نراها بالنسبة إلى الدورة الأوربية وإما أن يتطابق مع استيلاء الأمويين على الحكم كما هو شأن الدورة الإسلامية".[142] وفي الحالتين تكون السلطة في يد العقل الذي لا يملك سلطة النفوذ على الغرائز التي تسترجع نفوذها بفقدان الروح لنفوذها عليها، فتظهر بوادر الانهيار والأفول.

فتأثير الفكرة الدينية في الروح الفردية والروح الاجتماعية هو الذي يحدث الدوافع والأسباب في روح الفرد والمجتمع إلى النهوض، ويكون هذا الحال وراء كل تجديد حضاري وخلق كل حضارة وأساس حركة الإنسان في التاريخ.

التغيير:

إنّ التغيير الذي يعرفه التاريخ ويمس حياة الفرد والمجتمع والأمة هو جوهر ولب عملية التجديد الحضاري، قبل الحضارة وخلالها وبعدها. وكما يكون التغيير شرطا لازما لبناء الحضارة فهو شرط كل تطور حضاري وشرط كل عملية إصلاح أو بعث وإحياء، وكما يكون التغيير شرط البناء الحضاري فقد يشرف على هدم هذا البناء وإزالته، و"مالك بن نبي" يضع التغيير كفاعلية إنسانية فردية واجتماعية وأممية وراء كل نهضة، ومبدأ التغيير عنده يمثل قاعدة ذهبية أكد عليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنّ اللهَ لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾.[143]

142- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 103.

143- قران كريم: سورة الرعد، الآية 11.

تناول "مالك بن نبي" مبدأ التغيير كقاعدة عامة في كل حركة تاريخية حضارية، فهو يلازم كل عملية من بشأنها أن تجدد أو تطور أو تصنع التقدم والإبداع في مختلف مجالات حياة الإنسان الفكرية والاجتماعية والمادية، كما تناوله كمشكلة مطروحة أمام العالم الإسلامي الذي يعاني الجمود والركود والتخلف، وحلّ هذه المشكلة مرهون بتمسك المسلم بالقاعدة المقررة في الآية السابقة خاصة وأن عناصر الحضارة كامنة في جوهر الدين، ومهمة الدين ليست في إنشاء الحضارة فقط بل تأثيرها يتواصل متجاوزا حدود الزمان والمكان، وعُدة الحضارة الخالدة هو الإنسان الذي يتحرك في الحضارة بدافع الروح الديني فينتج الأفكار والأشياء أي ينتج الحضارة ويحرص على تطويرها وحمايتها من الفساد والإفلاس والزوال.

إنّ عملية إنتاج الأفكار والقيّم والأشياء بفعل التجديد الحضاري تكون بدافع الفكرة الدينية هذه العملية تتضمن تغييرا يحدث في روح الفرد وروح المجتمع وروح الأمة، وعامل التغيير يبدأ في داخل نفس الفرد، ولا يتغير شيء في الخارج إن لم يغيّر الفرد نفسه، "فهذه الحقيقة علمية يجب أن نتصورها كقانون إنساني وضعه الله عز وجل في القرآن كسنة من سنن الله التي تسير عليها حياة البشر".[144] ولا يحصل التغيير في محيط الفرد ما لم يحصل في نفسه أولا، وتغيير النفس هو الأساس لكل تغيير هادف رشيد، فالاستعمار لم يستطع فعل شيء أمام فرد ذو نفس تحررت من المذلة بفعل تغيير نفسي مكّنها من القيام بوظيفتها الاجتماعية.

فالتغيير ضرورة لا بد منها لكي يحقق الإنسان وجوده في التاريخ ويقوم بوظيفته الاجتماعية التاريخية، والتغيير يبدأ من داخل نفس الفرد ثم يشق طريقه خارج الفرد في المجتمع والأمة والإنسانية جمعاء، هذا المبدأ لا يؤكد تاريخ النهضات والحضارات بمفرده بل يمثل مبدأ قرآنيا ثابتا وسنّة من السنن الكونية وضعها الله لتهدي حياة العباد، كما يمثل هذا حقيقة علمية فالفرد

---

[144]– مالك بن نبي: دور المسلم في الثلث الأخير من القرن 20، ص 58.

"لا يمكنه أن يغير شيئا في الخارج إن لم يغيّر شيئا في نفسه وحينما نقول هذه الكلمة نقولها باعتبارها علما ولا نقولها فقط تبركا بآية، نقولها علما ونعلم مقدارها من الصحة العلمية".[145] وبالتالي يظل التغيير فاعلية إنسانية ضرورية للتجديد الحضاري عند إنسان تحرّك في التاريخ ليحقق وجوده، عند إنسان صارت إرادته قوية ورغبته كبيرة في الإرتقاء الحضاري، عند إنسان يعاني الفساد فتحرّك لإصلاح أوضاعه، عند كل من شقّ طريقه نحو البعث والإحياء وإعادة البناء وهجران الجمود والتخلف والانحطاط.

البناء لا التكديس:

يعتمد "مالك بن نبي" في تحديد شروط النهضة والتجديد على شواهد تاريخية، كما يستقرأ الواقع، واقع الأمم المتحضرة وظروف الشعوب المتخلفة، ويرجع مشكلات الإنسان جميعا إلى مشكلة الحضارة "فالقضية إذن ليست قضية فقر وإنّما هي أمر يتعلق بأساس مشكلاتنا. فعلينا أن نفكر في جذور المشكلات. وندرك أن القضية قضية حضارة. وما الفقر والغنى ولا الجهل ولا المرض إلا أعراض لتلك المشكلة الأساسية".[146]

تشترط الحضارة العامل الروحي - الفكرة الدينية - الذي يدفع الإنسان ليتحرك في التاريخ ويغيّره ويركب بين عناصر "العدة الدائمة"، كما يتطلب التغيير في كل مرحلة من مراحل التحضر وفي كل طور من أطوار التجديد، فتقتضي الحضارة تجنب الاتكال على الغير وتحاشي أسلوب الاستيراد والتكديس، فلا يتحضر شعب إلا إذا امتلك وعيا حضاريا يميّز بين البناء والتكديس وبين الإنتاج والاستيراد، "فالبناء وحده هو الذي يأتي بالحضارة لا التكديس ولنا في أمم معاصرة أسوة حسنة، إنّ علينا أن ندرك بأنّ تكديس منتجات الحضارة الغربية لا يأتي بالحضارة".[147]

---

[145]- المرجع السابق: ص 57.

[146]- مالك بن نبي: تأملات، ص 166.

[147]- المرجع السابق: ص 167.

إنّ عملية إنشاء الحضارة لا تتم بشراء كل منتجاتها وتكديسها لأن ذلك مستحيل من حيث الكم والكيف معا، فالحضارة لا تبيع كل منتجاتها مرة واحدة فهي لها روح وأفكار وأذواق خاصة بها تبقى لها "وفي استخدامنا للمصطلحات البيولوجية نجد أن الحضارة مجموعة من العلائق بين المجال الحيوي "البيولوجي" حيث ينشأ ويتقوى هيكلها، وبين المجال الفكري حيث تنمو وتولد روحها، فعندما نشتري منتجاتها فإنها تمنحنا هيكلها وجسدها لا روحها".[148] وتعجز الأمة المستوردة عن شراء كل منتجات الحضارة ودفع ثمنها لأنها لا تملك رأسمال ذلك، فالاستحالة هنا تاريخية واجتماعية اقتصادية، والتسليم بالإمكان يؤدي إلى "الحضارة الشيئية" لكن يوجد فرق شاسع بين تجربة مخططة والحالة الحضارية القائمة على التكديس هذا ما يجعل البناء شرطا ضروريا لقيام أية حضارة على الأرض، ويصبح المقياس العام في عملية التحضر هو "الحضارة هي التي تلد منتجاتها، وسيكون من السخف والسخرية حتما أن نعكس هذه القاعدة حين نريد أن نصنع الحضارة من منتجاتها".[149]

إنّ الحضارة عملية بناء وناتج حركة أفراد المجتمع تتطلب أسسا فكرية ومادية في عالم الأشخاص والأشياء في إطار منهج يحدد المبادئ والغايات كما يستغل كافة الوسائل والسبل لأداء الوظيفة الاجتماعية، هذه الوظيفة لا تحصل في غياب التوازن الروحي المادي في الفرد والمجتمع، وفي ارتباط الحضارة بعناصرها الأولية من جهة وبالتغيير من جهة ثانية وبالبناء من جهة أخرى، تصبح "مشكلة الحضارة تنحل في ثلاث مشكلات أولية: مشكلة الإنسان، مشكلة التراب ومشكلة الوقت، فلكي نقيم بناء حضاري لا يكون ذلك بأن نكدس المنتجات، وإنّما بأن نحلّ هذه المشكلات الثلاث من أساسها".[150] ولحل المشكلات الثلاث واستغلال شروط البناء استغلالا رشيدا

---

[148]- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 62.

[149]- المرجع السابق: ص 61.

[150]- المرجع السابق: ص 65-66.

يسمح بإنشاء حضارة فذلك يتطلب توجيها رشيدا لعناصر وشروط النهضة وسائر إمكانيات وطاقات الفرد والمجتمع.

التوجيه:

نفهم ظاهرة التوجيه كشرط ضروري للنهضة والتجديد الحضاري انطلاقا من أنّ النهضة مشروطة بالتغيير الذي يقع على مستوى الفرد والمجتمع، هذا التغيير الذي يضمن تحرك التاريخ بفعل دوافع نفسية واجتماعية، ولا يؤدي المجتمع رسالته وينهض بواجباته إلا بوجود ترابط عضوي بين مكونات شبكة العلاقات الإجتماعية "أنّ صناعة التاريخ تتم تبعا لتأثير طوائف اجتماعية ثلاثة:

أ- تأثير عالم الأشخاص.
ب- تأثير عالم الأفكار.
ج- تأثير عالم الأشياء.

لكن هذه العوالم الثلاثة لا تعمل متفرقة، بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقا لنماذج إيديولوجية من"عالم الأفكار" يتم تنفيذها بوسائل من"عالم الأشياء"من أجل غاية يحددها"عالم الأشخاص"".[151]

التغيير التاريخي من إنتاج العوالم الثلاثة، ووحدة التغيير التاريخي ضرورية، فإن انسجام وحدة التغيير التاريخي مع الغاية منها ضروري، ذلك يجسد الحضارة في الواقع، "وهذا الشرط يستلزم كنتيجة منطقية وجود "عالم" رابع هو مجموع العلاقات الاجتماعية الضرورية أو ما يطلق عليه "شبكة العلاقات الاجتماعية" وتنطلق عملية التغيير التاريخي من الفرد.

﴿إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾.[152] ثم تنتقل إلى خارج الفرد وهي عملية منوطة بتوجيه الفرد لا تركه عرضة للتلقائية والصدفة والارتجال والفوضى، والتوجيه كعامل حضاري يعني "قوة في الأساس وتوافق في

151- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص 23-24.

152- قران كريم: سورة الرعد، الآية 11.

السير، ووحدة في الهدف".[153] كما يعني "تجنب هذا الإسراف في الجهد والوقت".[154] فالمشكلة برمتها مشكلة فرد يصنع التاريخ من خلال تأثيره في المجتمع بفكره وعمله وماله، والتوجيه يكون في هذه النواحي الثلاثة الفكر والثقافة، العمل ورأس المال.

بالنسبة لتوجيه الفكر والثقافة يتعلق الأمر بالعناصر الجوهرية اللازمة للثقافة وهي تكوّن المركب الاجتماعي للثقافة، وأسلوبها التوجيهي ينحصر في توجيه الأخلاق وتوجيه الجمال وتوجيه المنطق العملي وتوجيه الفن التطبيقي العملي أو الصناعة بلغة "ابن خلدون"، والعلاقة العضوية بين المبدأ الأخلاقي والذوق الجمالي هي التي تحدد اتجاه الحضارة، والمنطق العملي يمثل الأسلوب الذي يربط الأعمال بوسائلها ومعانيها ويبعث في العمل الفعّالية، لأن كثير من الأفعال تتميز باللاّفعّالية فيذهب الأكبر منها في العبث واللهو، والصناعة أو الفن التطبيقي الذي يحتاج إلى توجيه يتعلق بجميع الفنون والحرف والقدرات والتطبيقات العلمية، فالصناعة فن له قيمة اجتماعية مهما كان متواضعا وزهيدا، فحرفة الرعي زهيدة ومتواضعة جدا بل وضيعة عند البعض في المجتمعات المتخلفة، فهي "لها مدرسة وطنية في فرنسا بمدينة "رامبولييه" من ضواحي باريس، فلو رأينا الراعي الخريج من هذه المدرسة، والراعي عندما يقود كل منهما قطيعه لعلمنا أي الفرق بينهما؟...".[155]

أما فيما يتعلق بتوجيه العمل عند مرحلة تكوين المجتمع فهو يعني"سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد".[156] كل صاحب حرفة وفي كل يوم يصنع حجرة جديدة في البناء الاجتماعي، "فتوجيه العمل هو تأليف كل الجهود لتغيير وضع الإنسان وخلق بيئته الجديدة".[157]

---

[153]– مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 117.

[154]– المرجع السابق: ص 117.

[155]– المرجع السابق: ص 148.

[156]– المرجع السابق: ص 163.

[157]– المرجع السابق: ص 164.

توجيه العمل يمثل عاملا ضروريا للبناء الاجتماعي وصنع الحضارة في التاريخ وفي الوقت نفسه وسيلة لكسب الحياة و"حين يتحد توجيه الثقافة وتوجيه رأس المال يفتح مجالات جديدة للعمل".[158] والعمل لدى الإنسان انبثق في بدايته الأولى عندما تحركت يد الإنسان وشقّت الطريق إلى الفكر فأعدّت الجو المناسب لتطوره و"كلما تقدم التوجيه المثلث للإنسان تغيّر وجه الحياة حتما فيكتمل ويحتل مستوى أرفع دائما".[159]

يحدد "مالك بن نبي" رأس المال كأداة اجتماعية لا سياسية كما ذهب "كارل ماكس" لأنّ "كارل ماركس" تناوله ضمن ظروف وأوضاع المجتمع الرأسمالي في عصره الذي كان يعرف اضطهاد الطبقة البرجوازية لطبقة البرولتاريا أما "مالك بن نبي" فتناوله ضمن الظروف التي تعيشها البلاد الإسلامية في عصره، وهو يؤكد على الفرق بين الثروة التي هي ملك خاص لصاحبه ليس لها عمل مستقل وليست قوة مالية تدخل في بناء الصناعات والميادين الاقتصادية الأخرى وبين رأس مال الذي هو قوة مالية تدخل في تغيير وتطوير الاقتصاد، فهو"المال المتحرك" وهو مجرد لا يُنسب إلى أحد، فحركته في داخل المجتمع وخارجه، تحرّك الأنشطة وتوظيف الأيدي والعقول، وتوجيه رأس المال يكون في الكم بحيث يعرف الشمول والتوسيع وفي الكيف بحيث يخلق الشغل باستمرار.

يؤكد "مالك بن نبي" في موضوع توجيه الثروة المالية بقوله: "فالقضية ليست- كما بينا - في تكديس الثروة، ولكن في تحريك المال وتنشيطه، بتوجيه أموال الأمة البسيطة، وذلك بتحويل معناها الاجتماعي من أموال كاسدة إلى رأس مال متحرك، يُنشّط الفكر والعمل والحياة في البلاد".[160]

---

[158]- المرجع السابق: ص 164

[159]- المرجع السابق: ص 164.

[160]- المرجع السابق: ص 172.

إنّ توجيه الإنسان في النواحي الثلاث لغرض التجديد الحضاري يرتبط بتوجيه التراب والوقت بل يشترط ذلك ليكون الفعل الحضاري متكاملا، فالتراب عنصر من عناصر تكوين الحضارة وقيمته الإجتماعية تكون على قدر مالكيه من التقدم أو التخلف والانحطاط، ففي الجزائر أخذت الأراضي الزراعية تختفي شيئا فشيئا بفعل زحف الرمال وغزو الصحراء وسكان الأرض "وقفوا منها موقف الجبان والضعيف لقد فرّ ساكن البادية... فهو الآن تائه حائر بين الصحراء التي تبدده وبين المدن الساحلية التي ترفضه أو تبتلعه حيث تجعل منه إنسانا منبوذا".[161] أما في فرنسا فانطلق الإنسان وقام "بغرس أشجار في الناحية الجنوبية الغربية من البلاد حيث كانت رمال الشاطئ الأطلنطي والمستنقعات الضارة تهدد مصالح أهلها وصحتهم".[162]

الزمن هو العامل الثالث من عوامل الحضارة، يمثل ثروة في مجال ما ويكون عدما وفراغا في مجال آخر، وهو جوهر الحياة الذي لا يُقدر بثمن، ويرتبط بالتاريخ، ولا يتحدد معنى التأثير الإنساني في الإنتاج ولا يتحدد معنى الوجود الإنساني إلا بتحديد فكرة الوقت ووعي قيمته، والتربية هي الأداة الوحيدة التي تغرس في أفراد المجتمع قيمة الوقت تثبتها فيهم، " فإذا استُغل الوقت هكذا فلم يضع سدى ولم يمر كسولا في حقلنا، فسترتفع كمية حصادنا العقلي واليدوي والروحي وهذه هي الحضارة".[163] فالتجديد في الحضارة من حيث تكوينها أو تطورها أو استمرارها أو إصلاح أوضاعها يقتضي عدة دائمة وتغييرا يبدأ من داخل الفرد ثم يتجه إلى الخارج فيحصل البناء من خلال توجيه وتخطيط يربط المبدأ بالغاية ويستغل جميع الوسائل والمناهج لخدمة الإنسان ولتحقيق أغراضه القريبة والبعيدة.

---

[161]– المرجع السابق: ص 200.

[162]– المرجع السابق: ص 205.

[163]– المرجع السابق: ص 214.

د- ميادين التجديد الحضاري:

يمثل التجديد الحضاري محرك عملية البناء الحضاري وحادثة ميلاد الحضارات، ويشكل عامل الرقي الحضاري وشرط استمرار هذا الرقي، بدونه لا تتم أية حركة بعث أو إحياء مهما كانت الظروف والأوضاع، لأنه حركة تطور صاعد تواقة دوما إلى لأفضل، هذه الحركة لها أبعاد إنسانية متعددة ومتكاملة ولها شروط تضعها، وانطلاقا من معنى التجديد الحضاري وأبعاده وشروطه نجده يجري في جملة من الميادين المرتبطة بحياة الإنسان في مستوى الفرد والمجتمع والأمة والإنسانية، وهي ميادين تؤكد كلها الطموح الحضاري الإنساني في هذه المستويات.

من واضح أن الميدان الأول للتجديد الحضاري هو الإنسان ومحيطه، الإنسان كفرد يكوّن المجتمع مع بني نوعه ويؤثر في المحيط الذي يعيش فيه كما يتأثر به، والمعروف أنّ الإنسان كميدان للتجديد الحضاري تتفرع منه عدة ميادين يمكن تقسيمها إلى ميدان روحي معنوي فكري تمثله الثقافة، وميدان مادي تمثله الحياة الاقتصادية المادية بعناصرها المتمثلة في الإنتاج ووسائل الإنتاج وعلاقات الإنتاج وقطاعاتها المتمثلة في الفلاحة والصناعة والتجارة والقطاعات التي ترتبط بها كالنقل والاتصال وغيرها.

تمثل الميدان الفكري الروحي أو الميدان الثقافي مجالات عديدة كالأخلاق والسياسة والاجتماع والدين والعلم والفن وغيره، أما الميدان المادّي تمثله عدة مجالات كالعمل ووسائل العمل ومناهج العمل والزراعة والصناعة والتجارة والصيد وغيرها، لكل ميدان من القسمين شروط وظروف تؤثر فيه وتحدده، فالأول يتطلب التغيير في الفرد من حيث نفسيته وفي المجتمع من حيث قيّمه وأفكاره، وهذا يتم بالتوجيه التربوي، أما الميدان الثاني فيستدعي التخطيط الذي يشترط التوجيه التربوي في الميدان الفكري، لأن الحضارة تقوم حينما يحصل التوازن بين الجانب الروحي والجانب الفكري في حياة الإنسان.

إنّ الثقافة هي المحيط الذي يعكس حضارة مجتمع دخل التاريخ، فهي تمثل أوسع ميدان يعرف التجديد والتطور لكثرة وتنوع القيم والمنتجات الثقافية الفكرية والأخلاقية والدينية والاجتماعية والسياسية والفنية والجمالية وغيرها، هذه مظاهر الثقافة انبثقت من المجهود الإنساني المتميز بالفعّالية في مستوى الفرد ومستوى المجتمع، والطابع الاجتماعي للثقافة .

فالثقافة لا تقتصر على صنف معين من الأفراد داخل المجتمع ولكنها تشمل جميع فئات المجتمع، فالمحيط يمثل رحم المنتوج الثقافي والقيمة الثقافية، والثقافة تشبه المحيط المكوّن من الأشياء والصور والحركات والمشاهد والأفكار المنتشرة في كل جهة، "فالثقافة هي الوسط الذي يُشكّل داخله الكيان النفسي للفرد بنفس الصورة التي يتم بها تشكّل كيانه العضوي داخل المجال الحيوي الذي ينظمه".[164]

هذا الوسط الذي يتشكل فيه الكيان النفسي للفرد هو يشهد التجديد والإبداع في جوانب عدة مترابطة فيما بينها ومتكاملة، وجانب الأفكار من هذه الجوانب التي تشهد التجديد وتكون مسئولة عن البناء الحضاري، "إنّ حضارة ما هي نتاج فكرة جوهرية تطبق على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر الدفعة التي تدخل به التاريخ".[165] فالفكرة الإسلامية هي التي دفعت المسلمين الأوائل إلى اكتشاف شروط النهضة والأخذ بها في إنشاء الحضارة الإسلامية، وفكرة التقدم كان لها الأثر الكبير في دفع الإنسان الأوروبي في العصر الحديث إلى الجد والاجتهاد والنهضة، فكان السباق نحو التحضر، جاءت الحضارة الغربية الحديثة نتيجة هذا السباق وهذه المنافسة.

إنّ تغيّر الفكر وتجديده يعني تجديد المفاهيم والتصورات والمعاني والدلالات عن الوجود الذاتي الفردي وعن الوجود الخارجي الطبيعي والاجتماعي وغيره، وتجديد مناهج التفكير وتجديد المبادئ والقواعد مع الغايات والأهداف،

---

[164]– مالك بن نبي: آفاق جزائرية، ص 125.

[165]– مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 41.

والتفكير في الوسائل ومناهج الوصول إلى تلك الغايات، وإيجاد السبل والوسائل للربط بين المبادئ والغايات في انسجام وتطابق.

هذه العملية تجري في مختلف الجوانب الفكرية، في الجانب العلمي وهو مجال ثقافي بحيث لا تخلوا أية حضارة منه، فيه تتفرع العلوم وتتعدد كما تتعدد مناهج البحث العلمي ومعها النتائج العلمية وتطبيقاتها، فالتاريخ يثبت أن كل حضارة غابرة أو حاضرة كان العلم فيها سيدا، فالحضارة الإسلامية شهدت نهضة علمية لم يسبق لها مثيل بما امتلكت من علوم الدين وعلوم الدنيا، والحضارة الحديثة قامت على النهضة العلمية التي فجّرت النهضة التقنية فهي حضارة علم وتكنولوجيا، وصار مقياس التقدم الحضاري في العصر الحديث والمعاصر هو ما تنتجه الأمة في المجال العلمي والتقني.

الفن مجال ثقافي يُعدّ إحدى مظاهر الحضارة له دور إيجابي بحيث يدعو إلى الفضيلة كما له دور آخر يدعوا إلى الرذيلة، والفن يبرز"عندما يشرع في تقرير هذه الوسائل التي تجعله مربيا أو مفسدا".[166] ويمكن توسيع مجال الفن لكي لا يقتصر على جملة من الممارسات كالموسيقى والشعر والرقص وغيره ليشمل كيفية الجلوس، وكيفية تناول وجبة الطعام وشرب الماء والمشي في الطريق وغير ذلك، لكن الشائع خاصة في البلاد الإسلامية، هو أنّ الفن يتعلق بجملة من النشاطات مثل الموسيقى والغناء والسينما.

يرتبط الفن بالجمال، ومن الباحثين الأوائل الذين اعتنوا بدراسة النفس البشرية "أبو حامد الغزالي" الذي اعتنى بدراسة الجمال وتأثيره في المجتمع ومن الصور النفسية للجمال الإحسان، الصدق، الكرم، وهي صور نفسية جميلة متبادلة بين أفراد المجتمع.

"إنّ الأفكار بصفتها روح الأعمال التي تعبر عنها أو يسير بوحيها، إنما تتولد من الصور المحسة الموجودة في الإطار الاجتماعي والتي تنعكس في نفس من يعيش فيه، وهنا تصبح صورة معنوية يصدر عنها تفكيره".[167]

---

[166]- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 191.

[167] المرجع السابق: ص 138-139.

إنّ التربية الفنية والجمالية تخلق الذوق الجمالي في اختيار الأشياء والأفكار والأفعال، والجمال موجود في المجال الذي يتضمن الحركات والأشياء والصور فيوحي ذلك للإنسان بالأفكار وينعتها بالذوق الجميل أو الصور القبيحة، وبالذوق الجميل الذي ينشأ في الفرد ويتجدد باستمرار يقوم النزوع إلى الجميل في العمل ويقوم التمسك بالعادات الكريمة، هذا ما يؤكد الدور الهام الذي يلعبه الجمال في المجتمع فهو يدعوا إلى الفضيلة ويحث عليها وينبذ الرذيلة ويدعوا إلى تجنبها وذلك انطلاقا من ذات الفرد وسلوكه لينعكس في المجتمع وقيّمه وعاداته وقوانينه.

إلى جانب المجال العلمي والمجال الفني والجمالي وهما مجالان ثقافيان فكريان يوجد مجال الأخلاق التي تنظم حياة أفراد كل المجتمع وتحدد العلاقات الاجتماعية، "وإن كل علاقة هي في جوهرها قيمة ثقافية يمثلها القانون الخلقي والدستور الجمالي الخاص بالمجتمع".[168] فالأخلاق نشأت في المجتمع ولأجله، تتطور بتطوره وتنحط بانحطاطه، فالمبدأ الأخلاقي وإن كان في أصله دينيا روحيا هو الذي دفع الإنسان إلى التحرك نحو الحضارة ولم تكن له هذه الحضارة إلا بعدما راح نشاطه وراحت ممارسته تلبس مجموعة من القيّم الخلقية.

هذه القيّم هي التي ملئت نفس المسلم فترك الوثنية واعتنق عقيدة التوحيد وهي التي جعلت «آل ياسر» يرسّخون مبدأ التضحية في سبيل الحق، فصاروا نموذجا ومثالا لكل مسلم في البناء الروحي الذي هو أساس بناء الحضارة، فللأخلاق دور في حياة الفرد وأهمية اجتماعية كبيرة، إن تنظيم المجتمع خاضع لجملة من القوانين أنتجها المجتمع أو لم ينتجها هي في جوهرها أخلاقية وُجدت فيه لتمكنه من بلوغ غايته، "وكلما حدث إخلال بالقانون الخلقي في مجتمع معين حدث تمزق في شبكة العلاقات التي تتيح له أن يصنع تاريخه".[169]

---

[168]- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص 45.

[169]- المرجع السابق: ص 49.

وترتبط الاخلاق بالدين مثلما هو الحال في الأخلاق الإسلامية والأخلاق المسيحية والأخلاق البوذية، و"مالك بن نبي" يعتبر الحضارة روحية دينية أخلاقية في أساسها ومنشأها، فالحضارة تنطلق وتكون بدايتها حينما تتحرك فكرة دينية أو يتحرك مبدأ أخلاقي ويدخل التاريخ، والتجديد الحضاري هو شرط البناء التاريخي وميلاد الحضارات وهو عامل تطوير التاريخ وازدهار أي حضارة، وهو أساس كل إصلاح حضاري أو بعث وإحياء، فالتجديد الحضاري بالنسبة لميلاد أي حضارة يتمثل في ذلك التغيير الذي يطرأ في نفس الفرد ثم ينتقل إلى المحيط الذي يعيش فيه الاجتماعي والطبيعي والجغرافي، تغير في الميول والرغبات والمشاعر والاهتمامات والتصورات والتفسيرات والرؤى، بحيث تتغير نظرة الإنسان إلى نفسه وإلى محيطه وإلى الوجود وعلل الوجود وإلى الآخرين فتنشأ تصورات جديدة ومفاهيم جديدة لدى الفرد عن الفرد وعن المجتمع وعن الطبيعة وعن الوجود ككل وواجد الوجود وتنشأ مع هذا جملة من العلاقات الإجتماعية وتنشأ معها جملة من العلاقات مع الطبيعة ومعطيات الطبيعة ومع ما بعد الطبيعة، وتتجسد تلك المفاهيم والعلاقات في جملة من الأعمال والأشياء تعرف بمظاهر الثقافة، هذه الثقافة هي المحيط الذي يعكس حضارة مجتمع ما دخل التاريخ.

فالتجديد الديني أو الأخلاقي شهدته جميع الحضارات في ميلادها، وهو تغير يجري في الفكر والسلوك من خلاله تتحدد المبادئ والغايات كما تتحدد القوانين والقواعد التي تضبط وتوجه وتنظم الوسائل والسبل والسلوك المؤدية إلى تلك الغايات وغالبا ما تكون بعيدة وقريبة معا، غايات دنيوية وغايات أخروية، حتى أن الأخلاق التي تفتقر إلى الوحي فهي مرتبطة بعقيدة يؤمن بها أصحابها على أنها السبيل الوحيد للخلاص مثلما هو شأن الاتجاه الشيوعي إذ نجد الماركسيين يؤمن بأن الشيوعية وأخلاقها هي السبيل الوحيد للخلاص الاجتماعي والسياسي والاقتصادي وهي نزعة لا دينية استطاعت أن تقوم بما قام به الدين.

العرب قبل الإسلام كانوا يعيشون في جاهلية عمياء فيها الوثنية والنعرة القبلية ووأد البنات وغير ذلك من الرذائل وفيها الكرم والشجاعة والحكمة، لما جاء الإسلام غيّرت تعاليمه ذهنية الإنسان العربي وأخلاقه ومشاعره وحاجاته وصلاته بنفسه وبمحيطه وبالطبيعة وبما بعد الطبيعة فآمن بكل ما في القرآن والسنة وصدّقه عمله وأنشأ حضارة لا نظير لها في عصره هي الحضارة الإسلامية التي نبتت في إطار الروح، والأخلاق الإسلامية أساس هذا الإطار يقول تعالى: ﴿إنّ الدين عند الله الإسلام ومن يبتغى غير الإسلام دينا فلن يُقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾.[170] ومبدؤه ﴿إنّما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق﴾.[171]

من مجالات التجديد الحضاري الفكري والثقافي المجال السياسي الذي يرتبط بالمجال الأخلاقي ومجالات أخرى مثل الثقافة والإيديولوجيا وغيرها، يميّز "مالك بن نبي" بين مجال السياسة ومجال"البوليتيك" فالبوليتيك حديث صاخب عن الحقوق والمطالب بعيدا عن النزاهة والصدق وبعيدا عن التذكير بالواجبات وهو أسلوب ماهر في مخادعة الشعب ومغالطته، أما السياسة فهي سائر المحاولات التي يتأمل الإنسان من خلالها في المنهج والوسائل التي تبني الدولة وتخدم الشعب، فالسياسة هي "محاولة تأمل في الصورة المثلى لخدمة الشعب والثانية – أي "البوليتيك" مجرد صرخات وحركات لمغالطة الشعب واستخدامه".[172] وشتان بين إنسان يتأمل ذاته وقيّمه ويبحث عن النموذج القويم لبناء دولة قوية تراعى فيها المصلحة العامة وتؤدى الواجبات وتعطى الحقوق لأصحابها وتتحقق فيها العدالة والتعاون فتحقق غاية الدولة المرجوة من السياسة "العمل الذي تقوم به كل جماعة منظمة في صورة دولة".[173]

---

[170]– قرآن كريم: سورة آل عمران، الآية 85.

[171]– حديث شريف.

[172]– مالك بن نبي: بين التيه والرشاد، ص 98.

[173]- المرجع السابق: ص 99.

عندما يميّز الفرد بين السياسة و"البوليتيك" ويهتدي إلى السياسة لبناء الدولة وتقويتها هو تجديد في المجال السياسي، هذا التجديد يضعف عندما يقوم التأمل في الصورة المثلى لخدمة الشعب على غير فكرة دينية وعلى غير مبدأ أخلاقي، إنّ ارتباط السياسة بالأخلاق ضمان لاستقرار المجتمع والدولة وهو شرط التجديد والبناء، وانحلال الدولة يكون حينما يغيب سلطان الروح والأخلاق عن الحياة السياسية فتتسع دائرة الشهوات والغرائز وتلعب دور المحرك الموجه للسلوك، فالدولة الإسلامية قامت وصارت قوية بالروح والأخلاق الإسلامية وانهارت لما عرفه إنسان ما بعد الموحدين من سقوط حيث انغمس المجتمع في الترف والبذخ وسيطرت الشهوة والغريزة بدل نفوذ الروح والأخلاق، والأنظمة السياسية المعاصرة في البلدان المتقدمة والمتخلفة على السواء تفصل السياسة عن الأخلاق بحدها غارقة في اضطرابات وحروب ومشاكل اجتماعية واقتصادية، هذه الأوضاع لا يمكن إصلاحها إلا بمنهج أخلاقي قويم، يضع الدولة في إطارها الأخلاقي الديني الطبيعي الذي يكفل لها البقاء والازدهار ولأفرادها كافة مطالبهم وحاجاتهم.

إنّ تجديد السياسة يقتضي "أن تكون أخلاقية جمالية علمية لكي تكون لها معنى في مسيرة التاريخ".[174] وتشترط هذه العملية التوجيه التربوي أي التربية الأخلاقية والتربية الجمالية وتعليم العلوم، فالتربية الاجتماعية ظاهرة يمارسها الإنسان في مستويين بحيث "يمكن التأثير في أسلوب الحياة في مجتمع ما، وفي أسلوب نموذجه الذي يتكون منه، وبعبارة أخرى: لكي يمكن بناء نظام تربوي اجتماعي ينبغي أن تكون لدينا أفكار جد واضحة عن العلاقات والانعكاسات التي تنظم استخدام الطاقة الحيوية، في مستوى الفرد وفي مستوى المجتمع".[175] وهذا مؤكد في المبدأ القرآني ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.[176] فكل ما يغيّر نفس الفرد يغيّر المجتمع، وثابت في معنى قول الإمام مالك "إنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها".[177]

---

[174]– مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 135.

[175]– مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص 72.

[176]– قرآن كريم: سورة الرعد، الآية 11.

[177] قول الإمام مالك.

إنّ التربية في المجتمع تستهدف تغيير الفرد وتغيير المجتمع بما يكفل للإنسان النهوض والبناء والازدهار، وعلاج أية مشكلة في المجتمع لا يكون دوما باقتباس الحل من ثقافة الغير، فالحل صحيح في إطاره الاجتماعي، "وينبغي أن نهيئ في بلادنا المحيط اللازم لتطبيق ما نتصور من حلول لمشكلاتنا الاجتماعية".[178]

وبلوغ المستوى المطلوب يقتضي توجيه الفكر والأعمال عند الفرد وفي المجتمع وفق ما يفرضه النظام الأخلاقي والدستور الجمالي والتقدم العلمي، وجوهر التوجيه في الفعل التربوي هو الفعّالية الاجتماعية التي من شأنها تسمح بصياغة المشكلات صياغة دقيقة ومضبوطة وتحدد المبادئ والغايات وتوظف كافة الوسائل وجميع السبل وفق إستراتيجية شاملة تسمح بالسير في التاريخ نحو الحضارة، وإنّ هذه "الشروط النفسية والاجتماعية التي تحرك المجتمعات وتفرض على الأفراد الانسجام مع قانون تلك الحركة بما لديهم من المؤهلات المكتسبة التي تكوّن ما سميناها المعادلة الاجتماعية أعني المعادلة التي تحدد فعّاليتهم أمام المشكلات وتعطيهم قيمتهم في المجتمع وفي التاريخ".[179]

من المشكلات الكبرى التي تواجه أفراد المجتمع المشكلات الاقتصادية، وحل هذه المشكلات من صميم التجديد الحضاري، والتجديد الحضارة في المجال الاقتصادي يشترط التغيير الذي يبدأ في النفس ثم ينتقل إلى عالم الاقتصاد، إنّ هذا التحول " لا يؤثر في عالم الاقتصاد بنوعية الشيء المصنوع والفكرة الدالة على طريقة صنعه – ما لم يؤثر في محتوى النفوس ذاتها طبقا للمبدأ القرآني".[180] وسائر التغيّرات الحاصلة في الحياة الاقتصادية هي في جوهرها تحولات حضارية تصيب القيّم والأذواق والأخلاق في مجريات التاريخ، وأي تحول في الأذواق والأخلاق والقيّم والثقافة يمثل مظهرا من

---

[178]– مالك بن نبي:ميلاد مجتمع، ص 97.

[179]– مالك بن نبي: تأملات، ص 134.

[180]– مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، ص 59.

مظاهر التجديد الحضاري يؤدي لا محالة إلى التطور الاقتصادي، ويتجدد الأصل الحضاري للبناء الاقتصادي بأنّ «الاقتصاد ليس قضية إنشاء بنك وتشييد مصانع فحسب، فهو قبل ذلك تشييد الإنسان وإنشاء سلوكه الجديد أمام كل المشكلات".[181]

إنّ الاقتصاد عند "مالك بن نبي" "هو تجسيم للحضارة على شرط أن نحددها بصفتها بجموعة الشروط المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يقدم جميع الضمانات الاجتماعية لكل فرد يعيش فيه".[182] إنّ الحضارة تشترط إرادة تحرك المجتمع والشروط المادية، وينتج عن هذا حاصل جمع الإرادة والإمكان الحضاري يعطينا الاقتصاد باعتباره حسم الحضارة أو صورتها المحسة، والعلاقات بين الإرادة الحضارية والإمكان الحضاري نسبية، فالعرب في عهد "الرسول صلى الله عليه وسلم" انطلقوا من الصفر من حيث الإمكان ونفذت جميع خططها بتفعيل وسائلها وشيدت حضارة لا نظير لها في ذلك العصر" ونفس التجربة عاشها الألمان بعد الحرب العالمية الثانية، والعلاقة النسبية بين الإرادة الحضارية والإمكان الحضاري تجعل الإمكان الحضاري منتوج الإرادة الحضارية باعتبارها عامل إشراف ومراقبة وتنظيم الاقتصاد باعتباره "التجسيم لإرادة حضارية".[183] هذه الإرادة الحضارية تتحرك بدافع العامل الروحي والفكرة الدينية فتبعث في الإمكان الحضاري الحياة والحركة.

إنّ البناء الاقتصادي يحصل بفعل الإرادة الحضارية لا بالمال لأنّ المال منفصل عن العمل ومستقل عنه، والمال يسجن العمل إذا تراكم وتجمّع في المنشآت المصرفية فتتحول طبيعته الاجتماعية، فبعد أن كان وسيلة لتخزين العمل وإنشائه صار عائقا أمام تحريك رأس المال لإنشاء الأعمال وتنميتها واستثمار ثروات الإمكان الحضاري، والاعتماد على الاستثمار المالي

---

[181]- المرجع السابق: ص 59.

[182]- المرجع السابق: ص 61.

[183]- المرجع السابق: ص 63.

في الحياة الاقتصادية دون الاستثمار الاجتماعي يؤدي إلى نتائج ضعيفة وربما فاشلة لأن النهضة الاقتصادية تتضمن الجانب التربوي الذي يتضمن خطة تنمية تفجر أبعاد الإنسان النفسية والاجتماعية وتخلصه من عقدة التخلف ومسلماتها الوهمية.

إنّ علاقة ظاهرة الإنتاج مع ظاهرة الاستهلاك تشكل ظاهرة التوزيع وجميع هذه الظواهر تعطينا "الديناميكا الاقتصادية" التي تمثل حركة التفاعل بين المنتج والمستهلك، وأسلوب الاقتصاد يحدد طبقا لكيفية تلبية الحاجة إما على الإمكان المالي أو على الإرادة الحضارية فإن تقرر حسب هذه الأخيرة قامت الديناميكا الاقتصادية على مسلمتين: لقمة العيش حق كل فم. والعمل واجب على كل ساعد. وعليه فالإرادة الحضارية تكشف الإمكان في الاقتصاد - وهو أمر مقرر في القرآن- كما تضع هذا الإمكان في الإطار الاجتماعي، وتبقى الروح الدينية ضرورية لكل نهضة اقتصادية وللديناميكا الاقتصادية بحيث يصبح فيها المال خادما مطيعا للمجتمع يرفع عن الإنسان قيود المادية الماركسية التي جعلت منه مجرد آلة للإنتاج، بفعل الروح الدينية يقوم التماسك بين القيّم الاقتصادية والقيّم الروحية الأخلاقية، فتنبني الديناميكا الاقتصادية على فكرة الواجب وفكرة الحق وفكرة العدل وغيرها، هذه القيم التي لم تقم عليها ديناميكا الاقتصاد الرأسمالي

ولا ديناميكا الاقتصاد الاشتراكي وقامت عليها ديناميكا الاقتصاد الإسلامي في عهد ما قبل الموحدين.

إنّ التخطيط الاقتصادي في أي بلد ينبغي أن يراعي ظروف البلد وإمكانياته، فالواقع الإنساني يفسر على أساس معادلتين لا معادلة واحدة، الأولى بيولوجية تضع جميع الناس في مستوى واحد دون تمييز فالذي يقدر عليه هذا الشخص يقدر عليه شخص آخر والثانية اجتماعية تتميز من مجتمع إلى آخر بل تختلف في المجتمع الواحد من وقت إلى آخر حسب درجة التخلف أو النمو، والمعادلة الاجتماعية تمثل شرط التجديد الحضاري

والاقتصادي بحيث تشكل جملة العادات والتقاليد التي يفطر عليها الطفل منذ مهده ويحرم منها طفل آخر ولد في مجتمع لم تتكون فيه معادلة اجتماعية أو فقدها لأسباب تاريخية معينة.

إنّ النهوض الاقتصادي يشترط دوما الأخذ في الاعتبار الضرورات الداخلية والضرورات الخارجية، فالفرد يتحرك لدفع طاقات المجتمع على أساس مسلمة "كل فم له الحق في أن يأكل" ومسلمة "العمل واجب على كل ساعد" لتحريك عملية الديناميكا الاقتصادية في الداخل ولأجل "الصمود في وجه الزحف الاقتصادي من الخارج".[184] فالمجتمع في حاجة إلى ضروراته الداخلية مثلما هو في حاجة إلى حلول إقليمية وجهوية وعالمية، "إن كل وطن مسلم أو غير مسلم يستطيع حل بعض مشكلاته داخل حدوده مثلا كل ما يتعلق بالعدل والإدارة والأمن. كما يستطيع حل مشكلات أخرى في نطلق تنظيم جهوي، مثل إنتاج وتسويق البترول بالنسبة للدول العربية لو يتم اتفاقها بهذا الصدد، ثم هناك مشكلات لا تحل إلا على مستوى عالمي مثل قضية السلم وتنسيق البريد".[185]

فالتجديد الحضاري في الميدان الاقتصادي يخص العمل ووسائله وعلاقاته ويظهر في القطاعات الاقتصادية مثل الزراعة والصناعة والتجارة ويشترط التوجيه القائم على عوامل روحية وأخلاقية تضمن له النماء والاستمرارية.

يتضح مما سبق أن مبادئ التجديد الحضاري فكرية روحية ثقافية ومادية اقتصادية، فيها تظهر قدرة الإنسان على الإبداع وبناء الحضارة وصنع التاريخ، لكن توجد صعوبات كثيرة تحول دون ذلك عند إنسان ما قبل الحضارة أو إنسان خرج من الحضارة إذن فما هي موانع التجديد الحضاري؟.

---

[184]- المرجع السابق: ص 98.

[185] المرجع السابق: ص 100.

هـ- موانع التجديد الحضاري:

من الواضح أن التجديد الحضاري تصنعه جملة من الشروط ويتجلى في جملة من الميادين تمثل مظاهر الحضارة ومعالمها، ويمثل هو ذاته عامل البناء الحضاري لكل مجتمع دخل التاريخ فهو يمثل الديناميكا الحضارية لكونه إستراتيجية شعب يريد التحضر وينفر من التخلف ويرغب في التطور الروحي والمادي، ولكونه نظاما يُنتهج وخطة تُتبع لتطوير منتجات الحضارة الفكرية والمادية وللمحافظة على منتجات الحضارة القائمة واستمرارها من خلال الإبداع في مختلف المجالات فيتحقق التقدم والازدهار، ولكونه أسلوبا ينتهجه المجتمع في كل إصلاح ينجزه لرد المفاسد والأضرار ومن أجل إعادة البناء، ويحتاج أي مجتمع إلى التجديد الحضاري حينما يحرص على بعث وإحياء قيم وأعمال وعادات طيبة نافعة يكون قد تخلف عنها في وقت سابق، لكن في هذه الحالات التي يكون فيها التجديد الحضاري جوهر كل العمليات الحضارية وأساس "الديناميكا الحضارية" عند ميلاد الحضارة أو عند تطورها أو عند إصلاح ما تم إفساده، وحتى في عملية البعث والإحياء وإعادة البناء تقف أمامه جملة من الأسباب تمنع حركته وتقضي على بوادره وعلى الشروط التي تصنعه فيقوى التخلف وتتثبت أسباب الجمود والتحجر، هذه الأسباب المانعة لقيام الحضارة ولقيام التطور الحضاري أو لإبعاد الإصلاح الحضاري وإبعاد أي فعل لأجل البعث وإعادة البناء هو ما نتعرف عليه في هذا المطلب.

إنّ موانع التجديد الحضاري تدخل في النسق الفكري لفلسفة الحضارة عند "مالك بن نبي"، استقاها من بحوث في التاريخ وتاريخ المجتمع الإسلامي وواقع الشعوب المتخلفة والشعوب المتقدمة، لأنّ الصراع قائم بين التحضر والتخلف وكلما قامت أسباب التحضر زالت معها موانع التجديد الحضاري والعلاقة عكسية بين شروط الحضارة وأسباب ضعفها وانهيارها وأفولها، بين موانع النهضة وشروط النهضة.

لقد حدد "مالك بن نبي" في أكثر من بحث وفي أكثر من كتاب وفي أكثر من محاضرة شروط نهضة أي شعب وهي شروط الحضارة معتبرا المشكلة الأم في حياة الإنسان هي مشكلة حضارته، والحضارة مرتبطة بعوامل بناء كما ترتبط بعوامل هدم للبناء، وأسباب تقتضي البناء في مرحلة ما قبل الحضارة هذه الأسباب التي تقتضي شروط البناء أو تهدمه ترتبط بحياة الفرد والمجتمع في جميع مجالاتها الروحية والفكرية والاجتماعية.

إنّ غياب الفكرة الدينية في حياة الفرد والمجتمع الروحية والتي تمثل الشرارة التي تنبعث منها أضواء التجديد الحضاري وأنوار الحضارة يؤدي بالضرورة إلى عجز الإنسان عن السيطرة على مكونات العدة الدائمة والتركيب بينها في وحدة عضوية تسمى الحضارة، ومما يعود إليه غياب الفكرة وعجز الإنسان عن التركيب بين العناصر الأولية للحضارة، الجهل والوثنية، "وإذا كانت الوثنية في نظر الإسلام جاهلية، فإن الجهل في حقيقته وثنية لأنه لا يغرس أفكارا بل ينصب أنصابا وهذا هو شأن الجاهلية".[186] فالفترة التي كانت قبل مجيء الإسلام سماها القرآن الكريم بالجاهلية ولم يقر فيها ذلك التراث الأدبي، لأن التراث الثقافي لم يكن يحتوي سوى الديباجة المشرقة الخالية من كل عنصر "خلاق" أو فكر عميق".[187]

إنّ غياب الأفكار وسيطرة الأوثان وانتشارها يمنع كل محولة تجديد في المجال الثقافي الروحي والأخلاقي وهو الأمر في المجتمعات البدائية والمجتمع العربي الجاهلي الذي لم تكن علاقاته "المقدسة مع أفكار وإنما كانت مع أوثان الكعبة. فالكلام العربي آنذاك لم يكن يتضمن سوى كلمات براقة وخالية من كل بذور خلاقة. وإذا كانت الوثنية جهالة فالجهالة بالمقابل وثنية".[188] والثابت في السنن الإلهية أنه كلما غابت الفكرة ساد الوثن والصنم لكن العكس صحيح في بعض الأحيان، ففي الجزائر مثلا وحتى سنة 1925 كان

---

[186]– مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 36.

[187]– المرجع السابق: ص 36.

[188] مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 96.

شعبها لا يعرف الأفكار بل يدين بالوثنية الي أقامت "نصبها في الزوايا، هنالك كانت تذهب الأرواح الكاسدة لالتماس البركات ولاقتناء الحروز ذات الخوارق والمعجزات".[189]

ظل هذا الشعب الجزائري يلتمس رضا الأوثان ويدفع عن نفسه حمى الدراويش ويحترق بنيران أهل الزردة "الفتنة" غارقا في الأوثان الخرافية الوهمية، حتى فعل الإصلاح في الجزائر فعله وأوشك الحال بالعودة إلى الروح الإسلامية حتى وجد الشعب نفسه أمام وثن جديد يغذيه الجهل ويزكيه والعزوف عن الفكرة الدينية الي كادت تخلصه من الوثن الخرافي.

إنّ احتلال الوثن مكان الفكرة في الحياة السياسية وسيطرة سلطة الصنم على مقاليد الحكم في الدولة يؤدي إلى اتساع نفس الشعب لإهانة المستعمر وتتكون فيه الروح الي تقبل الاستعمار فتنشأ فيه القابلية للاستعمار، والوثن السياسي جهل وجاهلية بما يجب أن تقوم الحياة السياسية، «فجهل أو تجاهل القوانين الأساسية الي تقوم عليها الظاهرة السياسية والي تقتضينا أن ندخل في اعتبارنا دائما صلة الحكومة بالوسط الاجتماعي كآلة مُسيّرة له وتتأثر به في وقت واحد وفي هذا دلالة على ما بين تغيير النفس وتغيير الوسط الاجتماعي من علاقات متينة ولقد قال الكاتب الاجتماعي"بورك": "إن الدولة الي لا تملك الوسائل لمسايرة التغيرات الاجتماعية لا تستطيع أن تحتفظ ببقائها".[190]

عندما عرف الإنسان الوثن الخرافي ومعه الوثن السياسي ولم يعرف ذلك القانون السياسي أصبح في أمس الحاجة إلى شعار «غيّر نفسك فأنت تغيّر التاريخ".[191] ولم يدرك بأن الحق يشترط الواجب، "وأنّ الشعب هو الذي يخلق ميثاقه ونظامه الاجتماعي والسياسي الجديد عندما يغيّر ما في نفسه".[192]

---

[189]– مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 37.

[190]– المرجع السابق: ص 42.

[191]– مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 100.

[192]– المرجع السابق: ص 100.

غرق في التخلف واختفت عنده بوادر التقدم والنهضة وتلاشت مطالبه وحاجاته في "السراب السياسي" وكان ذلك بفعل جهل العوام وتجاهل البعض الذين طالبوا بالحقوق ولو مع الجهل والعري والوسخ، "ألا قاتل الله الجهل، الجهل الذي يلبسه أصحابه ثوب العلم فإن هذا النوع أخطر على المجتمع من جهل العوام لأن جهل العوام بيّن ظاهر يسهل علاجه، أما الأول فهو متخف في غرور المتعلمين".[193] فالجاهل يميت الأفكار وينشأ الوثن الخرافي كما يظلل الشعوب ويخادعها بفعل غرور المتعلمين وفي الحالتين معا لا يقوم مقام لشروط التجديد الحضاري لتعمل عملها.

ترتبط أية حضارة في ميلادها بفكرة واضحة مضبوطة تحمل المبدأ وتحدد الغايات قريبة كانت أو بعيدة التي يعيش لأجلها الفرد والمجتمع، فالحضارة هي "نتاج فكرة جوهرية تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر الدفعة التي تدخل به التاريخ".[194] لكن هذه الفكرة لا تقوم بوظيفتها الاجتماعية والحضارية إلا بتوفير جملة من الشروط النفسية والأخلاقية وعمل هذه الشروط وتوفرها أمر ممكن في غياب الجمود الفكري الذي يملأ الحياة العقلية والفكرية لأفراد المجتمع، وهذا الركود في عالم الأفكار وهو ركود في عالم الأشخاص والأشياء يكون في حالات عديدة أولاها حالة ما قبل الحضارة التي تفتقر إلى الفكرة الواضحة محركة عملية التاريخ، بحيث يقوم الجمود الفكري بمنع قيام شروط التجديد والبناء الاجتماعيين من خلال رد أية محاولة تغيير في المنظومة الفكرية الفردية والجماعية، وهو شأن كل الشعوب البدائية سواء تلك التي شهدت الحضارة أو تلك التي لم تشهدها.

أما الحالة الثانية فتخص مرحلة الحضارة، بحيث يكتسب المجتمع عادات فكرية تترسخ في نظامه الاجتماعي وتبق حالّة في ذهنيات أفراده ومنجزات حضارته، وهذه العادات الفكرية تقف في وجه كل جديد وتمنع التغيير ويصبح الركود الحضاري معول هدم للتجديد بقتل روح الإبداع

---

[193] مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 50.

[194] مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 41.

الفردية والاجتماعية التي هي جوهر التجديد الحضاري وتطوير الحضارة وتحصينها بالتقدم الفكري والمحافظة على استمرارها وبقائها، وينتج عن هذا القتل سقوط الحضارة وأفولها مما يوسع في مجال الجمود الفكري فيزداد تخلف المجتمع وانحطاطه ويفقد معنى وجوده.

إنّ طريق الخروج من حالة الجمود الفكري للوصول إلى حالة يتطور فيها عالم الأفكار هو التغيير في حالة البداوة أو الحضارة أو ما بعد الحضارة، هذا التغيير يبدأ في نفس الفرد ثم ينميه نحو الخارج أي محيط الفرد وهو الطبيعة والمجتمع، فالفكرة الإسلامية هي التي ملئت عالم الأفكار عند المسلمين الأوائل تدل على تغيير جذري في المفاهيم والتصورات والعلاقات، هذا التغيير يخص نظرة الإنسان إلى نفسه وإلى الآخرين وإلى الله والوجود وغير ذلك، وهي التي أخرجت عرب الجاهلية إلى مسرح التاريخ، وهو حال الفكرة المسيحية والفكرة البوذية والفكرة البراهمية، والنهضة الأوروبية الحديثة نتاج انقلاب فكري وحاصل تفاعل جملة من التغيّرات التي دخلت عالم الأفكار في المجال المعرفي والعلمي والسياسي والاقتصادي وغيرها من المجالات الأخرى، إنّ التخلف والتراجع والانحطاط ظواهر تُنزل أي مجتمع من فوق وتمنع فيه أي مبادرة أو محاولة بناء أو تجديد أو إصلاح فهي ظواهر من إنتاج الجمود الفكري، وسبيل القضاء على الجمود الفكري الالتزام بالمبدأ القرآني الوارد في قوله تعالى: "إن الله ل يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم".[195]

لا يندمج أي مجتمع في التاريخ ما لم يتخطى عقبة الجمود الفكري، ويشهد نهوضا فكريا على مستوى الأفراد، و"يكون للأفكار دور وظيفي، لأن الحضارة هي القدرة على القيام بوظيفة أو مهمة معينة".[196] إنّ ظاهرة الجمود الفكري التي تمنع النهضة تعود إلى غياب الإرادة الحضارية، وانعدام الإرادة الحضارية يعني انعدام القدرة على التغيير لغياب النزوع أو القصد

---

[195]– قرآن كريم: سورة الرعد، الآية 11.

[196] مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 42.

المشحون بالعزم والإصرار ولغياب الشعور بأهمية التحوّل وضرورته لدى الفرد والمجتمع، وقد يتحرك بعض الأفراد نحو ذلك مثلما تحرك بعض الأبطال في التاريخ في عهد الأوديسة والإلياذة وهي عهود لم تُوجّه فيها الطاقة الاجتماعية نحو الأهداف الحضارية وكانت ملاحمهم لأجل اكتساب المجد الذي هو قريب من الأساطير وليس لأجل صنع التاريخ.

فالإرادة الحضارية هي تحول في ذات الفرد في صلته بالمجتمع، من خلال تحقيق ذاته والمعنى من وجوده، وهي إنتاج اجتماعي ذي وظيفة اجتماعية، وانعزال الفرد عن اتصاله بالجماعة يفقده الإرادة الحضارية ويضعفه ويتركه حبيس ظروف وأوضاع ليس فيها الإرادة في تقديم العون والمساعدة له، "إنه حينئذ يشبه الفرد الذي يبقى حيّا بعدما يندثر جنسه في كارثة أرضية مأساته شبيهة بمأساة آخر ماموث من العصر الجليدي، يتيه في الفيافي المجمدة القاسية حيث لا يجد القوت".[197] وهنا تبرز"تبرز أهمية الإرادة الحضارية وقيمتها الاجتماعية وتصبح ضرورة حضارية لكونها تمثل إرادة المجتمع التي تجعل الحضاري ذات طابع موضوعي باعتبارها "جملة العوامل المعنوية والمادية اللازمة لتنمية الفرد".[198]

فغياب الإرادة الحضارية في حياة الفرد والمجتمع يعني فقدان المجتمع لوظيفته تجاه الأفكار وعجزه عن توفير الشروط الاجتماعية والمادية التي تضمن العون والمساعدة للفرد الذي هو جزء منه، وعجز المجتمع عن تقديم العون والمساعدة لأفراده بحيث لا يمنحهم القدرة والعزم والإصرار على التغيير، ولا يخلق فيهم القلق والتوتر والاضطراب لأجل التحرك في التاريخ فإن ذلك يمنع كل بادرة تحول أو محاولة تغيير أو حالة تجديد في حياة الأفراد الفكرية والاجتماعية.

إنّ جوهر الإرادة الحضارية هو التوتر الذي يمثل قوة للإقلاع والانطلاق، "والتوتر هذا فكرة دافعة، لا يمكن بثها عبر نظرية أو بأي إرشاد

---

[197] - المرجع السابق: ص 43.

[198] المرجع السابق: ص 43.

تعليمي".[199] تظهر هذه الفكرة حسب "تويني" حينما يظهر المجتمع للرد على التحديات بأعمال منظمة وناجحة، وهي الفكرة التي كانت وراء "إقلاع الإتحاد السوفيتي مع التجربة "الستاخانونفية" وأوضح للصين الشعبية ثبات إقلاعها خصوصا منذ الثورة الثقافية قد سجل هو أيضا المرحلة الأكثر تفجرا في سياق تكوين واندماج المجتمعات الوليدة".[200]

فالإرادة الحضارية هي وراء المعجزات الكبرى التي صنعها الإنسان في التاريخ وترتبط دوما بالتوتر والأفكار الدافعة، فهي ضرورة كقوة إقلاع وانطلاق لبناء المعجزة وبناء الحضارة، "إنّ هذه القوة هي جعلت تلك المجتمعات تنبثق من العدم ونشرتها على مسرح التاريخ حيث بقيت قائمة بقدر ما بقيت هذه القوى تدعمها".[201]

إنّ الإرادة الحضارية تكون دوما وراء إنسان الحضارة ورجل التاريخ وهي إرادة إنسانية اجتماعية تنتج الفعّالية في السلوك الإنساني وتفضي إليها باعتبار هذه الأخيرة شرطا ضروريا لقيام نهضة، أما اللاّفعالية فهي تمثل أحد العوائق أمام سير الإنسان نحو التجديد، وتعني غياب منطق عملي داخل المجتمع، هذا المنطق جزء من عالم الأفكار، وهو عجز في الأفكار "يخلق أو ينتج في المجال النفسي عجزا في "المراقبة الذاتية" وفي مراجعة النتائج".[202] بحيث لا تقيم الأفكار وزنا للعلاقات بين الأعمال والمجهودات والوسائل والسبل من جهة وبين النتائج المحققة من جهة ثانية ولا تحدد مفاهيم كمفهوم العمل ووسائل العمل ومحاصيله بدقة في التربية الأولى فأفكار الإنسان عن العمل وعن نتائجه وشؤون العمل وكل ما يرتبط به في المجتمع متروك للصدفة والعفوية.

---

[199]– المرجع السابق: ص 46.

[200]– المرجع السابق: ص 45-46.

[201]– المرجع السابق: ص 48.

[202]– مالك بن نبي: فكرة كومنولث إسلامي، ص 59.

إذا كان المنطق العملي يعني ارتباط العمل بوسائله ومدلولاته ونتائجه وهي معطيات تكون مستحيلة في عالم الأفكار فإنّ اللاّفعالية تعني انعدام هذا المنطق، ويؤكد "مالك بن نبي" على أنّ المنطق العملي منعدم في جوانب كثيرة ومختلفة من حياتنا في البلاد العربية والإسلامية، "ونحن أحوج ما نكون إلى هذا المنطق، لأنّ العقل متوفر في بلادنا غير أن العقل الذي يتكون في جوهره من الإرادة والانتباه، فهو شيء يكاد يكون معدوما".[203]

فغياب الشعور بالمسؤولية وانعدام الشعور بضرورة التغيير وضعف الإرادة والانتباه كل هذا يجعل الأفكار راكدة ساكنة خالية من الفعّالية عاجزة تماما عن توجيه الطاقات والمجهودات وعن استخدام الوسائل، "هذا العجز يخلق مفعولا اجتماعيا معينا وسببا نفسيا مصطنعا ويمدد هذا المفعول ويمنحه تبريرا ومغالطة".[204] بحيث يبرز العجز ومعه التخلف بالفقر أو الجهل أو المسافة وهي جميعا نتائج ترتبت عن اللاّفعالية باعتبارها عجز في الأفكار وغياب اتصال عالم الأفكار بعالم الأشياء، هذه الوضعية جعلت التبديد يغلب على كل نشاط يمارسه الأفراد ويستشهد "مالك بن نبي" على ظاهرتي التبديد والتبذير الناتجتين عن اللاّفعالية بمظاهر اللاّفعالية في واقع المجتمع الإسلامي إذ يقول: "نلاحظ أن التبديد هو الغالب بكثير في معظم الأحيان على المحصول وعلى خطتنا لبعض النشاطات النموذجية في الجزائر، تمكنت في دراسة ظهرت لي منذ بضعة سنين من الإشارة بالأرقام إلى تبديد مفرط لطاقاتنا الاجتماعية وتبذير مسرف وغير محسوس في وسائلنا. وهذا مظهر من مظاهر اللاّفعالية التي تعزى إلى العجز في أفكارنا".[205]

فاللاّفعالية تمنع التجديد الحضاري وتنتج التخلف الذي "هو نتيجة أو حاصل ضروب اللاّفعالية الفردية فهو فقدان للفعالية على مستوى مجتمع

203- ملاك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 123.

204- مالك بن نبي: فكرة كومنولث إسلامي، ص 61.

205- المرجع السابق: ص 61.

معين".[206] وتصبح الفعّالية هي الشرط الوحيد وراء كل نهضة ووراء تحديد هذه الفعالية، يحدد "مالك بن ني" مفهومها على أساس قرآني في قوله تعالى:

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾.[207] فينبغي تسجيل الأحداث والأفعال في الأنفس لا على أنها قضاء محتوم وقدر مكتوب بل يجب تحديد المسئولية منها وأدراك أسبابها وشروطها وقياسها بالميزان الصحيح وتوجيهها، عندئذ يعرف الإنسان بأنه هو مصدر هذه الأسباب التاريخية كلها، فهي تصدر عن سلوكه ونابعة من ذاته أي صادرة من إرادته "في تغيير الأشياء تغييرا يحدد بالضبط وظيفتنا الاجتماعية كما رسمها القرآن".[208]

إنّ نظرة الإنسان إلى الأحداث التي تحل به على أنها من صنيع القدر والقضاء تقتل فيه الفعّالية فيصبح مسالما مستسلما للانتظار والتوقع العفوي بعيدا تماما عن "الديناميكا" في الفكر والحياة الاجتماعية عامة، وهو وضع ينطبق على جميع الشعوب المتخلفة المعاصرة، فهي شعوب لا فعالة حضاريا اختارت طريق الاستيراد والتكديس لا سبيل الإنتاج والبناء.

فشراء منتجات حضارة الغير وتكديسها يخلق مشاكل خطيرة بحيث تنمو اللاّفعالية وتموت الفعّالية فيعيش الإنسان في تبعة حضارية لغيره ويكون عالة وليس هناك أخطر من التبعية الحضارية على حياة المجتمع وقيّمه وهويته، فالتكديس مظهر من مظاهر التخلف والتبعية يعيق التنمية ويمنع التجديد الحضاري، فشراء منتجات حضارة ما وتكديسها " الحضارة الشيئية" لا يبني الحضارة إذ أن أكوام من الأشياء المستوردة لا تساوي حضارة، فالحضارة حاصل تفاعل جملة من الشروط في التاريخ نفسية واجتماعية، وتخضع عملية البناء الحضاري لجملة من القوانين مثل قانون المبدأ الروحي وقانون التركيب بين عناصر العدة الدائمة وقوانين

206– مالك بن نبي: آفاق جزائرية، ص 121.

207– قرآن كريم: سورة آل عمران، الآية 110.

208– مالك بن نبي: تأملات، ص 126.

التوجيه وغيرها، "فإن العودة إلى الريادة في المجال الحضاري تكون بالبناء المخطط المدروس المحكوم بفكر متحرر من إرادة الأجنبي وتأثيراته وليس بدفع الأمـوال لشراء مواد الاستهلاك المادي".[209]

في ظاهرة التكديس يقول "مالك بن نبي": "إنّ علينا أن نكوّن حضارة أي أن نبني لا أن نكدس فالبناء وحده هو الذي يأتي بالحضارة لا التكديس ولنا في الأمم المعاصرة أسوة حسنة فالحضارة هي التي تكوّن منتجاتها وليست المنتجات هي التي تكوّن حضارة إذا من البديهي أن الأسباب هي التي تكوّن النتائج وليس العكس، فالغلط منطقي ثم هو تاريخي لأننا لو حاولنا هذه المحاولة فإننا سنبقى ألف سنة ونحن نكدس ثم لا نخرج بشيء".[210]

إنّ محاولة بناء الحضارة على الشيئية بشراء أشياء ومنتجات حضارة أخرى والحرص على تكديسها أمر ميئوس منه ومستحيل والاستحالة كيفية وكمية معا، كما أوضح "مالك بن نبي" في كتابه شروط النهضة في "مبحث من التكديس إلى البناء"، كما أن للحضارة روح وشخصية تحددها جملة من الخصوصيات الفكرية والتقنية والاجتماعية للإنسان الذي شيّدها، وإذا كان الإنسان يبيع أشياء حضارته فعندما نشتري منتجات هذه الحضارة "فإنها تمنحنا هيكلها وجسدها لا روحها".[211]

فالحضارة بناء يجري في المجتمع عندما يتحرك أفراده في التاريخ فينتجون الجديد في عالم الأفكار وعالم الأشياء، ومن ذلك يتشكل التجديد الحضاري وتتكون الحضارة، أما استيراد منتجات الغير وتكديسها فلا ينفع في أية محاولة للتحضر.

إنّ ما خُصّت به الطبيعة البشرية ما يسميه "مالك بن نبي" "الطاقة الحيوية"، "وهي من طبيعتها البهيمية لا تندمج مع الحياة في المجتمع بحيث أن اندماج الفرد الاجتماعي يراعي احتياجاته من ناحية واحتياجات المجتمع

209- أحمد السحمراني: مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، ص 103.

210- مالك بن نبي: تأملات، ص 167.

211- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 63.

الذي يندمج فيه من ناحية أخرى".[212] وتمثل الطاقة الحيوية جملة الدوافع الغريزية الحالّة في كل فرد بالطبيعة، فالحاجات التي تتطلبها هذه الدوافع الفطرية لا يمكن تعطيلها، عليها تقوم حياة الفرد ووجود المجتمع، لأن انصهار الفرد في المجتمع يقوم تدريجيا من خلال الاستجابة لطبيعته من جهة ولجملة القواعد التي تكوّن النسق الاجتماعي.

المعروف أنّ التجديد الحضاري لا تقوم له قائمة إن لم يحصل انسجام وتكامل من الطبيعة الغريزية الخاصة بالفرد والنظام الاجتماعي السائد في المجتمع الذي يعيش فيه الفرد، فإلغاء واحد من الدوافع البيولوجية مثل دافع الغذاء أو دافع الجنس أو دافع التملك فإن ذلك يؤدي إلى سيطرة قانون الغاب الذي ينظم الحياة على أساس الأقوى لا الأفضل، ومن جهة أخرى فإنّ تحرير الدوافع الغريزية البيولوجية من كل ما يقيّدها فإنها تهدم الحياة الاجتماعية وتحول المجتمع البشري إلى تجمع بهيمي تحكمه شريعة الغاب التي تقصر الحياة على مبدأ البقاء للأقوى والأشرس.

كثيرا ما ينشغل الإنسان بالدوافع البيولوجية ومطالبها على حساب حاجاته الإنسانية الاجتماعية والحضارية وهو حال الشعوب البدائية التي قضت حياتها في تلبية حاجياتها الحيوية ولم تعرف أبسط شروط النهضة وعوامل التجديد في نمط التفكير والسلوك، وهو حال أي جماعة بشرية تكون في مرحلة ما قبل الحضارة، بحيث أن انشغالها المتزايد بالحاجيات البيولوجية الحيوية يجعلها حبيسة نمط معين من التفكير وأشكال محددة من السلوك، هذه الوضعية تمنع فيها كل محاولة لتجديد الفكر أو لتطوير العمل، أي تمنع كل مبادرة لتطوير الحاجيات ونقلها من المستوى الفردي إلى المستوى الاجتماعي وبالتالي تمنع تطوير الأعمال ووسائلها ونتائجها.

إنّ وضعية الإنسان في مرحلة ما قبل الحضارة حيث تسيطر الدوافع والمطالب الحيوية على حياة الناس وتمنع كل تجديد أو نهضة هي وضعية يعيشها حتى الإنسان المتحضر ولكن بصورة مغايرة للصورة السابقة من

---

[212]– مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 49.

حيث النتائج لا من حيث الظروف والأسباب، فالحضارة تنتقل من المجال الروحي الأولي إلى مجال العقل حيث النماء والازدهار في جميع المجالات وهي مرحلة ينصرف فيها الناس إلى تلبية الشهوات والغرائز التي تسترجع سيادتها الغائبة أمام انحدار الروح ومطالبها ويغرق الجميع في حياة البذخ والترف واللهو فيُؤذن لميلاد مرحلة جديدة هي مرحلة ما بعد الحضارة فيها تتحرر الغرائز تماما من ربقة المجتمع هذا المجتمع الذي يتهدم وتتهدم حضارته وتصبح في خبر كان.

إنّ تفضيل الغرائز والشهوات على الأفكار والقيّم الروحية السامية والمثل العليا يضع الإنسان في مستوى بهيمي لا يعرف النهضة ولا يصل إلى الحضارة، لأن الحضارة تكون حيث يكون الإنسان القادر على تحقيق توازن بين طبيعته الغريزية وطبيعته ككائن روحي يملك الروح والعقل ويتمتع بقدرات شتى تجعله مؤهلا ليسود في هذا الوجود.

إنّ موانع التجديد الحضاري المحددة في هذه الدراسة وهي كثيرة ومختلفة ومتداخلة فيما بينها أدّت إلى نتيجة وضعت الإنسان في حالة لا يعرف فيها التحدي الفكري أو الاقتصادي أو السياسي بل حالة من التبعية اللامشروطة والانقياد الأعمى للآخرين في الفكر والسلوك وأنماط العيش عامة فتعرّض للاستعمار بمختلف أشكاله بقسوته ومرارته وصار يملك "القابلية للاستعمار".

إنّ الكثير من أبناء الشعوب المتخلفة والمستعمرة تبرر التخلف والانحطاط في بلادها بالجهل والفقر والاستعمار، "وقام هذا الذُهان الأخير في الجزائر على قواعد ثلاث من اللازم أن نذكرها هي:

- لسنا بقادرين على شيء لأننا جاهلون.
- لسنا بقادرين على أداء هذا العمل لأننا فقراء.
- لسنا بقادرين على تصور هذا الأمر لأن الاستعمار في بلادنا".[213]

---

[213] مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 80.

إنّ سبب التخلف والانحطاط لدى الشعوب المتخلفة عامة والشعوب العربية والإسلامية خاصة ليس خارجيا بل داخليا في نفس كل فرد من أفراد هذه الشعوب وفي الإطار الاجتماعي لكل مجتمع من هذه المجتمعات المتخلفة، "لا يأتي عامل الكف من خارج الذات بل هو سبب داخلي ناتج عن نفسية الناس وأذواقهم وأفكارهم وعاداتهم وفي كلمة واحدة ناتج عن قابليتهم للاستعمار".[214]

إنّ المستعمر- بكسر الميم- ينعت المستعمر- بفتح الميم- بالكائن المغلوب على أمره ويريد منه عاطلا عن العمل ليسخره في الأعمال الشاقة بثمن زهيد ويريد منه جاهلا ليستغله ويريد منه متدنيا في الأخلاق لكي تنتشر الرذائل لتشتيت المجتمع وتفريق أفراده حتى يحل بهم الضياع في الناحية الأخلاقية مثلما هو حال الناحية الاجتماعية، كما يريد منه كائنا تغمره الأوساخ يظهر في سلوكه الذوق السيئ ليتعرض للذل والاحتقار، "وبذلك تكون العلة مزدوجة، فكلما شعر بداء المعامل الاستعماري الذي يعترينا من الخارج فإننا نرى في الوقت نفسه معاملا باطنيا للمعامل الخارجي ونحط من كرامتنا بأيدينا".[215]

تمثل "القابلية الاستعمار" عائقا حضاريا داخليا ويمثل "الاستعمار" عائقا حضاريا خارجيا، لما لهما من تأثير سلبي، "وهو لا يظهر هنا في صورة أسطورة تكف العالم الإسلامي عن التطور وذهان يشله عن التغلب على مصاعبه النفسية والاجتماعية فحسب، بل يظهر أيضا في صورة محسة وأعمال سالبة تهدف إلى طمس قيم الفرد وإمكانيات تطوره، ويكون هذا الجانب أكثر ظهورا حينما يكون الاستعمار استبدادي، كما كانت حاله في إندونيسيا وطرابلس الغرب، وكما هو الآن في شمال إفريقيا".[216]

---

[214]- المرجع السابق: ص 83.

[215]- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 131.

[216]- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 99.

يحرص الاستعمار كل الحرص على التمكين لاستقراره في البلاد المستعمرة مستهدفا الفرد والمجتمع يؤثر فيهما لتقوية معامل "القابلية للاستعمار" فيزيد ذلك في السيطرة على المستعمر، فهو "يؤثر في حياة الفرد في جميع أطوارها يؤثر فيه وهو طفل، إذ لا يمده المجتمع بما يقوي جسده وينمي فكره، أو يهيئ له مدرسة أو توجيها، هذا إذ كان له أب يحنوا عليه أما إذا فقد من نشأته الأب فسيكون الأمر أدهى وأمر ولسوف يؤول صاغرا إلى ماسح الأحذية أو سائل يتخلى عن كل عزة وكرامة، بإراقة ماء وجهه" [217]

يؤثر الاستعمار في المجتمع تأثيرا سلبيا بحيث يهدمه ويزيف قيّمه ويمنع فيه قيام أي شرط من شروط النهضة والإصلاح وأي عامل من عوامل البعث والإحياء وإعادة البناء مستعملا وسائل وأساليب عديدة مباشرة وغير مباشرة محلية ودخيلة، "كذلك نجده يحول بين الشعب وإصلاحه نفسه، فيضع نظاما للإفساد والإذلال والتخريب، يمحو به كل كرامة أو شرف أو حياء هكذا يجد الشعب المستعمر نفسه محاصرا داخل دائرة مصطنعة، يساعد كل تفصيل فيها على تزييف وجود الأفراد".[218]

فلا سبيل إلى الحضارة أمام مجتمع تغمر أفراده "القابلية الاستعمار" أو خاضعا للدوائر الاستعمارية، فالحضارة من نصيب مجتمع يدرك أفراده معنى وجودهم ويتحررون من ربقة الوثن الخرافي والوثن السياسي والوثن لاستعماري وتكون حركة بناء تدخل التاريخ لتسقر فيه.

نستخلص مما سبق أن التجديد الحضاري له عوامل وشروط تحدثه كما له موانع تقف في وجهه، هذه الموانع ترتبط بالفرد وبمحيطه، وترتبط بالفرد ككائن طبيعي ونفساني وعاقل واجتماعي فهي موانع ذات طابع حيوي ونفساني واجتماعي وهي كذلك ذات طابع فكري ومنهجي، بعضها ذاتي في الفرد وبعضها موضوعي، بعضها داخلي في المجتمع وبعضها خارجي،

---

[217]- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 221.

[218] مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 101.

وسبيل الفرد والمجتمع إلى الحضارة هو القفز فوق موانع النهضة والتجديد للوصول إلى نقطة منها تنطلق وتقلع عملية البناء التاريخي بعدما تتوافر كافة شروط هذا الإقلاع.

و- إستراتيجية التجديد الحضاري واستمرار الأمة:

لقد انتبه "مالك بن نبي" إلى المشكلات التي يعاني منها الإنسان في عصره، ولاحظ أن المشكلة الكبرى في حياة الإنسان هي مشكلة حضارية، فدعا إلى البحث في الحضارة لمعرفة شروط قيامها وعوامل انهيارها، وقام بهذه المهمة الشاقة فانكب على دراسة التاريخ الإنساني بشكل عام والتاريخ الإسلامي بشكل خاص، كما درس واقع الشعوب والأمم المعاصرة المتحضرة والمتخلفة مركزا على واقع الشعوب العربية والإسلامية ومسلطا الضوء على واقع الجزائر وتاريخها بشكل خاص، وقد ساعده في ذلك إسلامه وإيمانه بقضيته ورسالته وتكوينه العلمي، فكان يحلل الوقائع والأحداث الماضية والحاضرة ويستخلص النتائج، كما كان يضع الفرضيات ثم يستدل عليها بالشواهد التاريخية والواقعية وتحليلها بأسلوب علمي فيه الدقة والضبط والإحكام والموضوعية والصرامة العلمية والمنطقية.

إنّ العمل الذي قام به "مالك بن نبي" في حقل البحث تميّز بطابعه العلمي من جهة وبطابعه الفلسفي من جهة أخرى، فهو استطاع أن يضع نظرية في الحضارة ويقدم التجديد الحضاري في استراتيجية لم يعرفها أحد قبله، إنّ نظريته في الحضارة تمثل إبداعا فكريا وفلسفيا وعلميا لا نظير له في عصرنا بما تميزت به هذه النظرية من دقة في طرح المشكلات وحصرها وعمق في التحليل وموضوعية في التصورات والتفسيرات وتنوع في المناهج والأساليب، فجاءت نظريته فلسفية وعلمية أخذت من الفلسفة القدرة على المشكلة والتحكم في التصورات والمفاهيم والقدرة على الاستشهاد وتبرير النتائج، وأخذت من العلم الدقة في الطرح والموضوعية في التحليل وانتهاج مختلف مناهج البحث العلمي وتميزت بحوثه بالنزاهة فلم يكن يطلب سوى الحقيقة لذاتها.

تعرّف "مالك بن نبي" على حركة الإصلاح والتجديد في عصره وانتقدها وبيّن ما لها وما عليها ولم يكن من ذوي التطرف في فكره في تعامله مع مختلف التيارات الفكرية في العالم الإسلامي، فكان همّه الوحيد هو الوصول إلى الحقيقة في حل مشكلة الحضارة، استطاع أن يضع نظرية هي بمثابة إستراتيجية شاملة تحدد أسباب قيام الحضارة وشروط البناء الحضاري كما بيّن عوامل ردّة النهضة وأسباب التخلف والانحطاط.

إستراتيجية التجديد الحضاري عند فيلسوف الحضارة "مالك بن نبي" تحددها جملة من المفاهيم تمثل معجمية فلسفة الحضارة عنده، وكان قد أطلع على فلسفة التاريخ في الفكر الخلدوني كما اطلع على فلسفة الحضارة والتاريخ في الفكر الحديث وعند أقطابها أمثال "توينبي" و"كارل ماركس" و"سبنجلر" وغيرهم، واستطاع بذلك أن يُلمّ بجوانب النقص وجوانب القوة في فلسفات هؤلاء وفي اتجاهاتهم.

تعرف "مالك بن نبي" على حركة الإصلاح والتجديد في عصره وانتقدها وبيّن مالها وما عليها، ولم يكن من أصحاب التطرف في فكره وفي تعامله مع مختلف التيارات الفكرية في العالم الإسلامي، فكان همّه الوحيد هو الوصول إلى الحقيقة في حل مشكلة الحضارة، استطاع أن يضع نظرية هي بمثابة إستراتيجية شاملة تحدد أسباب قيام الحضارة وشروط البناء الحضاري كما تبيّن عوامل ردّة النهضة وأسباب التخلف والانحطاط.

يختلف فلاسفة الحضارة عن "مالك بن نبي" في تفسيرهم للتاريخ في المنطلق والمنهج والمسار والمصب، حيث تعلق المنطلق بالذاتي والموضوعي معا، وتعلق المسار والمنهج بالروحي الديني والمادي الحسي معا، وتمثل المآل فيما هو دنيوي وأخروي معا، هذا التصور غاب لدى كل من تفلسف حول التاريخ وحول الحضارة قديما أو حديثا.

إنّ التجديد الحضاري ليس مرتبطا بأرض ما أو جنس ما أو لغة ما بل هو ظاهرة إنسانية تقوم حيث يعيش الإنسان وإذا غابت موانعها وتوفرت لوازمها وشروطها، هذه الظاهرة تتكون عندما يشرع الإنسان في

تغيير ما بداخل نفسه ليغير ما في خارجها بعد ذلك، بحيث تتغير أفكاره وأخلاقه ومشاعره وعاداته وآماله وغاياته، فالظاهرة تنشأ عن تحول في حياة الإنسان النفسية ثم الاجتماعية بعد ذلك، وهي تقوم أساسا على تغير تصورات وفهوم الإنسان ونظراته إلى ذاته وإلى محيطه، كما يتصور المعنى من وجوده والرسالة الملقاة على عاتقه، وفي هذا الإطار يتصور المبادئ التي يتقيد بها والغايات التي يصبو إليها والوسائل والسبل التي تمكنه من ذلك في كل نشاط يقوم به، هذا التغير يكون أولا في المجال الفردي ثم يشق طريقه نحو المجال الاجتماعي.

ارتباط التجديد الحضاري بعامل التغيير يؤكده القرآن الكريم في الآية الكريمة: ﴿إِنّ اللهَ لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾.[219] وهو مبدأ ينسجم مع السنن الكونية إذ لا يمكن لمجتمع أن يتغير نحو الاستواء ونحو الأفضل ما لم يتغير أفراده، ولا يتغير أفراده ما لم يبدأ هذا التغيير في نفس كل فرد الذي هو جزء من المجتمع، والمجتمع ليس هو مجرد حاصل جمع أفراد بل هو نظام وشبكة من العلاقات لا حصر لها ولا عد تمثل شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتجلى في نسق اجتماعي قوانينه متماسكة في وحدة عضوية لا تقبل التفكك والانقسام، وتفككها يعني تفكك شبكة العلاقات الاجتماعية وبالتالي تفكك المجتمع.

إنّ عنصر التغيير الذي يحدث في نفس الفرد ثم يتحول إلى المجتمع يدل على العلاقة العضوية بين الفرد والمجتمع حتى أن بعض العلماء أرجعوا كل ما هو فردي إلى المجتمع واعتبروا الفرد مرآة عاكسة لكل ما هو اجتماعي، انتبه "مالك بن نبي" لهذه المسألة واعتبر الفرد عنصرا أساسيا وفعّالا في المجتمع، والمجتمع يؤثر تأثيرا كبيرا في أفراده في حالة نمائه وازدهاره وفي حالة فساده وانحطاطه، فالفرد "يدفع ضريبة عن اندماجه الاجتماعي إلى الطبيعة وإلى المجتمع، وكلـما كان المجتمع مختلا في نموه ارتفعت الضريبة".[220]

---

[219]– قرآن كريم: سورة الرعد، الآية 11.

[220]– مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 34.

فالتغير الذي يمثل جوهر التجديد الحضاري هو الذي يضمن التوازن بين الجانب الروحي والجانب المادي في الفرد كما يضمن التأثير المتبادل بين الفرد والمجتمع ضمن إطار تتحدد فيه حاجيات الفرد ومطالب المجتمع بعيدا عن الإفراط الأحادي في تلبية الحاجيات الفردية والاجتماعية.

للحضارة عمر وعمرها ثلاثة أطوار، طور الروح وطور الأوج أو العقل وطور الغريزة أو الأفول، تلك هي مراحل الدورة الحضارية في التاريخ والمجتمع الذي يعرف الحضارة يعيش ثلاثة مراحل هو الآخر، مرحلة ما قبل الحضارة ومرحلة الحضارة ومرحلة ما بعد الحضارة، هذا التصور نجده عند "ابن خلدون" لكنه يخص الدولة لا الحضارة مما جعل "مالك بن نبي" يعتبر المصطلح ضيق في نظرية "ابن خلدون" ولم يسمح لها بامتلاك الشمول والعموم الذي تتسم الحضارة، ويتسم به التاريخ، والتجديد الحضاري في مدلوله ووظيفته يتصل بإنسان الحضارة والتاريخ كما يتصل بإنسان المجتمع والتاريخ.

يمثل التجديد الحضاري في ارتباطه بإنسان المجتمع والتاريخ قوة فعّالة أساسها التغيير، تقوم هذه القوة بدفع الإنسان إلى الحركة داخل التاريخ ليبني الحضارة فينتقل الإنسان على أثر الدفعة الصادرة عن القوة من مرحلة ما قبل الحضارة إلى مرحلة الحضارة، يوجد فرق كبير بين إنسان ما قبل الحضارة والإنسان المتحضر، فالأول يعيش على الطبيعة في تصوراته وأخلاقه وسائر أعماله، تحركه حاجاته البيولوجية ومعطيات بيئته الجغرافية والبشرية التي تتميز بالبساطة لا التعقيد، وهو حال الإنسان في المجتمعات البدائية وحال العرب في الجاهلية، أما إنسان الحضارة يعيش على الطبيعة وعلى ما تبدعه عبقريته في الجانب الفكري والأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي، استطاع أن يسخر طاقاته لإضافة عالم جديد إلى عالم الطبيعة الموهوب بالفطرة، هو عالم الحضارة، وعندما يقف الشخص على قمّة جبل ينظر نحو الأسفل يرى المدينة بمبانيها وشوارعها والبحر في شمالها والسماء فوقها والجبال والغابات من حولها فهو

يرى العالم الجديد عالم الحضارة الذي هو امتداد للطبيعة أضافه الإنسان إلى عالم الطبيعة.

يتضح مما سبق أن التجديد الحضاري هو إستراتيجية البناء الحضاري، والحضارات التي شهدها تاريخ الإنسانية هي تجسيد لهذه الإستراتيجية وتنفيذ لهذه الخطة الموسومة فيها والتي تحدد المبادئ والغايات كما تعيّن الوسائل والسبل انطلاقا من حركة تغيير مضبوطة وذات فعالية تسمح للإرادة الحضارية بالإقلاع في عملية البناء والتجديد وتحطيم كل ما يعيق التحضر ويمنع النهضة، ففي مرحلة ما قبل الحضارة يقوم التجديد الحضاري بعملية تجمع فيها سائر الشروط والعوامل النفسية والاجتماعية للانطلاق وبعد الانطلاق يواصل التجديد سيره لضمان أهداف وغايات حضارية تاريخية.

يبقى التغيير دوما يمثل جوهر التجديد في حياة أية أمة دخلت التاريخ وشرعت في البناء الحضاري، هذا البناء يحتاج إلى قوة ومتانة ليدوم ويستمر، وعامل الحصول على هذه القوة التي تضمن الاستمرار والدوام للحضارة هو تجديد الأفكار وتجديد الأشياء وتطوير سائر المنجزات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، ففي كثير من الأحيان نجد شعوبا ضعيفة وتعاني مشكلة الجمود الفكري والركود الاجتماعي بسبب غرورها واعتقادها بأنها قد بلغت قمّة الرقي وذروة التحضر، فكلما أخذت الأمة بشروط وبعوامل التجديد كلما حافظت على منجزاتها الحضارية وكلما غابت فيها الفعالية انحدرت وفقدت قوتها واتجهت نحو الانحطاط والتدهور، هذه الحقائق تثبتها دروس التاريخ وفلسفة الحضارة، وكل الحضارات التي عرفتها الإنسانية القديمة والمعاصرة لا تفلت من هذا القانون.

إنّ مرحلة ما قبل التاريخ تشترط التجديد الحضاري لنقل الإنسان إلى عالم الحضارة، وفي مرحلة الحضارة يحتاج الإنسان إلى التجديد الحضاري لتقوية البناء الحضاري وتطويره وتحصينه والمحافظة على بقائه واستمراره لأن عوامل الفساد وأسباب الهرم كثيرا ما تدخل المجتمع لتنال منه ومن

أفراده، والصراع بين قوى الخير وبين قوى الشر أي بين قوى البناء وقوى الهدم طبيعي في البشر وفي المجتمع، وفي حالة تغلب معاول الهدم على شروط البناء يضعف المجتمع وينتكس ويتراجع بسبب انتشار الفساد فيه اختلال، نظمه وتفكك شبكة العلاقات الاجتماعية فلم تعد القيمة الثقافية خلقية في جوهرها وتعود في أصلها إلى عامل روحي، بل نسجل انفصال هذه القيّم عن بعضها البعض وانصراف الناس عن القيّم العليا للانشغال بالقيّم الحيوية التي تزكي الشهوات والغرائز ولا تعير أدنى عناية بمكارم الأخلاق.

أمام هذه الحالة من الفساد تقوم الحاجة الماسة إلى التجديد الحضاري باعتباره استراتيجية يحددها المجتمع حسب معطياته ومطالبه تمثل منهج إصلاح وأسلوب إعادة البناء، هذه الإستراتيجية تأخذ في الاهتمام الجانب الفردي والجانب الاجتماعي، خصوصيات المجتمع التاريخية والفكرية والروحية والطبيعية والاقتصادية عند تحديد مبادئ وشروط الإصلاح ووسائل وأساليب إعادة البناء وهو أمر يسمح للمجتمع بنهضة إصلاحية شاملة يكون الدور فيها لحركة التجديد الحضاري، فشعوب أوروبا في العصر الحديث عرفت نهضة علمية وتقنية رائدة انبثقت عنها الحضارة الأوربية .

هذه النهضة قامت على إصلاح مختلف الأوضاع وتجديد الأفكار والأشياء وكان ذلك وفق خطة عناصرها ومراحلها ومبادئها وغاياتها متكاملة، وإصلاح النفوس والعقيدة والتربية والتعليم في العالم الإسلامي الحديث هو هدف الحركة الإصلاحية، وكل ذلك يدخل ضمن خطة إصلاحية تحارب المفاسد وتطلب الجديد وتسعى إلى إعادة الأمة إلى مكانتها في التاريخ وفي رحاب الحضارة والمدنية.

قد يعتمد أفراد الأمة المتحضرة التي شهدت اختلال في حياتها الفكرية والاجتماعية أو تلك التي انهارت حضارتها على أسلوب الإحياء والبعث، إحياء تراث الأولين وأمجادهم، وفي هذه الحالة تحتاج الغاية إلى منهج وأسلوب يتماشى مع خصوصيات الأمة ومع أوضاعها القائمة وظروفها المعاشة من جهة

ومع المحيط الذي يعيش فيه وتعيش فيه الأمم الأخرى لها تأثير مباشر أو غير مباشر على هذه الأمة صاحبة البعث والإحياء.

إنّ منهج العملية ومبادئها ووسائلها وغاياتها تحددها إستراتيجية هي إستراتيجية التجديد الحضاري، ونجاح الأمة أو فشلها في عملية البعث والإحياء مرهون بطبيعة إستراتيجية التجديد الحضاري من جهة وبمدى قدرة الأمة على تنفيذ خطة تلك الإستراتيجية، توجد أمم اعتمدت استراتيجية وضعتها في حالة انغلاق وتقوقع فازدادت انعزالا وتخلفا أمام الصراع والتقدم الحضاريين، وأخرى فقدت هويتها لأنها انغمست في ما ليس لها، وأخرى نجحت إلى حد كبير في محاولة التوفيق بين تراثها وتطورات عصرها وأخرى لازالت تحاول وهي تنجح تارة وتفشل تارة أخرى.

إنّ كل تجديد حضاري في أي مجتمع وفي أي مرحلة من مراحل التاريخ هو استراتيجية تغير أوضاع وظروف الفرد النفسية والاجتماعية نحو الأفضل وبما يضمن تطوير تفكيره وسلوكه وأعماله وتطوير كل ما يتصل بالأعمال من وسائل وطرق ونتائج، هذه الإستراتيجية تربط بين المبادئ والغايات ضمن نظرة شاملة وخطة عامة يتبناها المجتمع ويحرص على تنفيذها، هذه الخطة ذات أبعاد كثيرة ومختلفة ومتداخلة وهي إنسانية، تاريخية، اجتماعية، أخلاقية، جمالية ودينية روحية، ولها شروط هي شروط كل نهضة وعوامل بناء الحضارة وتجديد منجزاتها، ويظهر التجديد الحضاري في منتجات الحضارة التي يعرفها ميدان الفكر والثقافة وميدان الاقتصاد، ففي ميدان الثقافة نجد التجديد الحضاري في الحضارة المعاصرة قد فجّر تقدما كبيرا في المجال العلمي من حيث المناهج والوسائل والنتائج وفي المجال الاقتصادي نشاهد تطور ملحوظا في وسائل العمل وأساليبه وتقنيته ناهيك عن التطور المدهش الذي عرفته وسائل النقل والاتصال.

إنّ دور التجديد الحضاري تحدده مراحل المجتمع المتحضر كما يحدده عمر الحضارة ومن خلال أطوارها الثلاثة، ففي مرحلة ما قبل الحضارة يقوم

بتوفير الشروط اللازمة للبناء الحضاري إذ ينقل الفرد والمجتمع من مرحلة اللاحضارة إلى مرحلة الحضارة وخلال مرحلة الحضارة يقوم بتطوير الحضارة في الجانب الفكري والاقتصادي ضمانا لاستقرارها واستمرارها، واستمرار الحضارة يعني استمرار الأمة المتحضرة، كما يقوم التجديد الحضاري بعلاج الوضع الناتج عن اختلال الحضارة أو انهيارها وأفولها.

حركة الإصلاح والتجديد التي شهدها العالم الإسلامي في العصر الحديث وفي أيامنا هي محاولات للتجدد الحضاري قام بها العديد من المفكرين "كجمال الدين الأفغاني" و"محمد عبده" و"ابن باديس" وغيرهم لإصلاح النفوس من الجهل والأوهام والخرافات وتنقية العقول من الأوثان وإصلاح العقيدة وإزالة الاستعمار والقابلية للاستعمار، وكان "مالك بن نبي" واحدا من هؤلاء الذين نالوا شرف القيام بهذه المهمة النبيلة التي لا تؤتى لأي أحد.

كان "مالك بن نبي" صاحب كلمة طيبة حرة هي عنده أمانة ومسؤولية، كان صاحب فكرة بناءة هي درّة وجوهرة، وكان فيلسوفا ومصلحا مبدعا، لقد قال فيه الأستاذ راشد الغنوشي: "مدرسة في الفكر الإسلامي الحديث لم ينصب فكره على النص الإسلامي وإنما على مناط تطبيقه على المجتمع من أجل إعادة بناء الحقيقة الموضوعية في نظر العقل المسلم بالكشف عن سنن البناء الحضاري وتطوره في اتجاه القوة والضعف".[221]

---

[221]– نقلا عن الطيب برغوث: موقع المسألة الثقافية من استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، ص 3.

6 ـ الفكر الإصلاحي عند مالك بن نبي في الميزان:

استوحى "مالك بن نبي" نظرية الحضارة وطبيعة التجديد الحضاري وإستراتيجية البناء الحضاري من دراسته لواقع العالم الإسلامي في عصره الذي تميز بالضعف الديني والانحطاط الفكري والتخلف الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، والذي شهد ظاهرة الاستعمار بمختلف أشكاله وتوابعها، ومن ورائها ظاهرة "القابلية للاستعمار"، ومن دراسته لتاريخ الفكر البشري بصفة عامة وتاريخ الفكر الإسلامي بصفة خاصة وللتاريخ الإسلامي، هذا التاريخ الذي شهد حضارة فريدة في نوعها شهدت أفولها بانتهاء عهد الموحدين، وكان للفكر الغربي وللحضارة الأوروبية تأثير كبير في إنتاج "مالك بن نبي" الفكري ونظرته إلي الإصلاح وإلى التجديد، كانت هذه هي المصادر التي انبثقت منها نظريـة فيلسـوف الحضـارة والتاريخ "مالك بن نبي"، وتحديده لطبيعة التجديد الحضاري الذي هو أساس كل فعل لبناء الإنسان والحضارة والتاريخ.

تقوم فلسفة الإصلاح والتجديد عند "مالك بن نبي" على أنّ مشكلة كل شعب من الشعوب أو أمة من الأمم هي مشكلة حضارة لا غير، هناك الأمة المتحضرة التي تنعم بالسمو الروحي والأخلاقي، والتطور الفكري والعلمي، والازدهار والنماء الاقتصادي، والانسجام والتناسق الاجتماعي، ينال فيها كل فرد مطالبه وحاجاته كما يقوم بواجباته وما عليه نحو مجتمعه، وهناك تجمع إنساني يفتقر تماما إلي عناصر الحضارة ومعالمها، تسوده الهمجية والفوضى والتوتر، فيه يأكـل القـوي الضعيف، ويحكمه "قانون الغاب"، والعالم الإسلامي شهد حضارة راقية بلغت أوجها وأسدل عليها الستار بعد عهد الموحدين، وهو يعيش حاليا في التخلف والانحطاط في مختلف جوانب الحياة، أما العالم القوي الحديث فيحيا حضارة راقية في منتجاتها العلمية والفكرية والتكنولوجية، أثرّت على حياة المسلمين والشعوب المتخلفة الأخرى، طبعتها بطابعها على الرغم من كونها تنطوي على أشياء

تتعارض مع القيم والانتماءات الذاتية للشعوب المتخلفة، وخاصة الشعوب الإسلامية.

مادامت المشكلة الجوهرية في حياة أي شعب من الشعوب هي مشكلة حضارته، فإن حل تلك المشكلة يرتبط أساسا بدراسة الحضارة ذاتها نظريا وتاريخيا وواقعيا وتحديد عوامل تكوينها وبناءها، وأسباب ازدهارها وتطويرها ودواعي انهيارها وأفولها، وفي غياب هذه الدراسة وجهل هذه العوامل والأسباب والدواعي لا يمكن بأي حال من الأحوال لهذا الشعب أو ذاك أن ينتقل من حالة لا حضارة إلى الحضارة، فالبداوة المتوحشة، والتجمع الشبه حيواني، والانشغال بالحاجات البيولوجية، والتناحر والاقتتال بين أفراد الجماعة البشرية على الشرب والمأكل والأمن، كلها عوامل لا تسمح بامتلاك عوامل البناء التاريخي وعناصر وشروط التحضر.

إنّ استيعاب الإنسان للحضارة والتجديد الحضاري وإلمامه بعوامل التغيير التاريخي والبناء الحضاري وإحاطته بدواعي الازدهار الروحي والمادي وامتلاكه لشروط التوافق الاجتماعي وإدراكه لأسباب انهيار الحضارات وأفولها، كل هذا يدفع به إلى مغادرة مرحلة اللاحضارة، وهي مرحلة التوحش والهمجية وحكم "قانون الغاب" إلى مرحلة الحضارة، أو طور الروح حيث ينعتق الإنسان من سيطرة الغرائز ويتحرر من قيود التوحش، فيسيطر الفكر والعلم والأخلاق، ويتحقق السمو الروحي والفكري والأخلاقي، ويكتمل في مرحلة الأوج أو طور الرقي، والرفاه المادي الذي يعيد للغريزة هيمنتها شيئا فشيئا إلى أن تبلغ شأوها فتزيل من أمامها أثر الروح والأخلاق والقيم، فيعلن عن وفاة الحضارة وميلاد الانحطاط والتخلف وعودة الإنسان إلى مرحلة اللاحضارة، على أساس أن هناك ثلاثة أطوار في حياة الأمة التي تعرف الحضارة: طور ما قبل الحضارة، وطور الحضارة، وطور ما بعد الحضارة.

كل حضارة هي تركيب بين عناصر ثلاثة هي الإنسان والتراب والوقت، والعنصر المركب بين هذه العناصر الثلاثة هو الدين أو الفكرة الدينية، فالإنسان باعتباره خليفة الله في الأرض كرّمه الله بقوى كبيرة فكرية وحسية، بها يستطيع أن يغيّر واقعه ويسخره لضمان مراميه وتحقيق مطالبه المختلفة، فهو كائن ليس كبقية المخلوقات الأخرى له من القوة ما يجعله سيد الوجود، ويحتل القمة في هرم الكائنات، أما التراب فهو المادة التي تخضع للتكييف البشري، وتسخر لراحة الإنسان وخدمة مصالحه، أما الوقت فهو ذو طابع تاريخي اجتماعي حضاري، خلاله يتم العمل الفكري واليدوي وخلاله يحصل تكييف الواقع الطبيعي وتسخيره وتحويله من صورة غير نافعة إلى أخرى نافعة، وذلك هو عين التجديد الحضاري.

إنّ عُدة الحضارة الدائمة - الإنسان، التراب، الوقت - ملك الإنسانية جمعاء، لا تجتمع وتتآلف إلاّ بتدخل الفكرة الدينية التي تصنع الوحدة والتكتل والانسجام بين عناصر الحضارة، وهذا لا يحصل إلاّ بالإيمان القوي في النفس، لأنّه قد تتوفر العدة الدائمة والفكرة الدينية ولا يحصل التحول التاريخي لغياب اكتمال شروط التغيير، وغياب التحول في أعماق النفوس، وغياب التطبيق الفعلي للقاعدة القرآنية الواردة في الآية : ﴿إِنّ اللهَ لا يُغَيّرُ ما بقومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾.[222] فالشرط الأول في عملية التغيير المطلوب لأي حركة أو فعل نحو التحضر هو تغيير عالم النفس بإزالة كل ما فيها من اعوجاج وأمراض وفساد في التصورات والمفاهيم، وما فيها من جهل الأمور وغموض في الأفهام، وتنويرها بالحقيقة، وتهذيبها على مكارم الأخلاق، وتحفيزها على الأخذ بالإيمان الصادق والعمل الدءوب والعلم النافع، فتمكين النفس من هذا المطلب هو أصل التجديد الحضاري، لينعكس فيما بعد في

[222]- قرآن كريم: سورة الرعد، الآية 11.

الواقع الاجتماعي والطبيعي، حيث يتجسد في منتجات حضارية دينية، فكرية، أخلاقية، علمية، وتكنولوجية.

تعرّض الفكر الإصلاحي عند "مالك بن ني" كغيره إلى انتقادات عديدة من قبل النقاد والباحثين في مرجعيته وفي معالمه، وحتى في أهدافه، ومن المعالم التي نالها الانتقاد نظرية الحضارة والظروف التي أوحت بها، فهي نظرية ذات طابع شمولي في عناصرها ومبادئها وأهدافها، ذلك ما أراده صاحبها الذي خطّ لها انطلاقا من ظروف تاريخية واجتماعية وفكرية ارتبطت بالعالم الإسلامي المتخلف، وبالعالم الأوروبي المتحضر، وما تميّز به الأوربي صاحب حضارة وقوة واستعمار، وما تميّز به المسلم من تخلف وانحطاط وضعف وقابلية للاستعمار، بحيث يرى البعض أنّ "مالك بن ني" وقع فيما وقع فيه "ابن خلدون"، حيث استخلص قوانين من واقع وتاريخ العرب والمسلمين وراح يعممها على كافة الشعوب والفترات التاريخية، ويظهر تأثره "بابن خلدون" في تحديده لأعمار الحضارة وأطوارها فهو لم يفعل شيئا سوى أنّه استبدل كلمة الدولة في الفكر الخلدوني بالحضارة في نظريته، رغم انتقاده "لابن خلدون" في هذه المسألة.

ما يعاب على فكر "مالك بن ني" وصفه للمرض الذي يعاني منه المسلمون في انحطاطهم وتخلفهم، تحديدهُ لوصفة الدواء والعلاج هذا من جهة، ومن جهة أخرى وصفه للقوة التي تميّزت بها الحضارة الغربية وتميّز بها الفكر الغربي، وتحديده لدواعي تلك القوة ومرجعيتها، فالتخلف يعود إلى ما يعود إليه الاستعمار ومن وراء الاستعمار القابلية للاستعمار التي تميزت بها الشعوب الإسلامية، ولمواجهة هذه الظاهرة راح يقبل بكل الحلول في «"مؤتمر باندونغ" فكتب حوله كتابه "الفكرة الإفريقية الأسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ"، مؤمنا بأنّ اللقاء الأفروأسيوي سبيل لتصفية الاستعمار والقابلية للاستعمار، وطريق إلى حضارة جديدة تضاهي الحضارة الغربية وتبزها، وأهمل التباين بين شعوب آسيا والشعوب الإسلامية: "كيف يمكن للمسلم ـ إذن ـ أن يستلهم التراث الهندوسي مع وجود هذه الفروق الأساسية

في النظرة إلى بعض مجالات الكون والحياة والإنسان".[223] ويرجع فشل نظرية "شاخت" في تطور وتنظيم اقتصاد إندونيسيا رغم نجاحها في تطـور اقتصاد ألمانيا إلى المعادلة الإنسانية. "وتحديد المعادلة الإنسانية للإنسان الأفرو أسيـوي فيبين أنها تحتوي على عدم إحساس بالزمن".[224]

إنّ المركب بين أجزاء المعادلة الإنسانية هو الدين هذا ما يؤكده تاريخ الحضارات عند "مالك بن نبي"، فالحضارة المسيحية وليدة تركيب بين الإنسان والتراب والوقت وكان ذلك بفعل الروح المسيحية وقيّمها التي خلقت في نفوس المسيحيين أسباب التغير والتحول، فكان ما كان من الانفجار الفكري والعلمي والتكنولوجي، فصنع الانفجار حضارة عالمية امتدت في المكان امتدادا لا نظير له في حضارات سابقة، فتمردت عن قانون "الدورات التاريخية" كما كانت في عصر "ابن خلدون"، في حين أن واقع الشعوب الأوروبية التي تحضرت حديثا يؤكد أن الحضارة الغربية شهدت انعدام ظاهرة الروح في البناء الحضاري الأوروبي الغربي الحديث، و "ليس من شك أن أزمة الروح في مختلف أبعاد الحضارة الغربية انعكاس لأزمتها عند الفرد ومحصلة لانعدامها في الذات. فيجب أن تنطلق المعالجة الحقيقية لأزمة الروح والأخلاق في الحضارة في ذات الإنسان من داخله، من جذوره، لذا نؤكد بأنه لا يتم ترميم حضارة بإلصاق الروح في جسمها من خلال مواضعات سياسية معينة، وإذا سلمنا بنجاح هذا الترميم فأمده محدود، ويستمر الدور ـ خلال فترة الإلصاق وبعدها ـ في نخر الجسم حتى تأتي عليه".[225]

إلى جانب الانتقاد الذي وجه إلى فكر "مالك بن نبي" حول رأيه في "مؤتمر باندونغ" وفي "فكرة كومنولث إسلامي" وفي مشاريع الجمهورية العربية المتحدة الهادفة إلى بنـاء حضـارة ومدحـه لإرادة «جمال عبد الناصر

---

[223]- غازي التوبة: الفكر الإسلامي المعاصر دراسة وتقويم، ص 61.

[224]- المرجع السابق: ص 62.

[225]- المرجع نفسه: ص 66..

»الحديدية وقبوله بسياسة الحكومة الجزائرية بعد الاستقلال وغيرها من الأفكار الأخرى، نجده يُنتقد في حلّه لمشكلة المفاهيم في الجزائر، فعنده معالجة المفهومية تكون بالشكل الآتي:

"- ميثاق طرابلس+اشتراكية (محدود بالعروبة والإسلام) + إصلاح الزراعي+ تصنيع مقبل= حل مشكلة الفراغ المفاهيمي. لكن هل تستطيع هذه المعادلة أن تحل مشكلة الفراغ المفاهيمي؟،هل تستطيع أن تحل مشكلة الفردية ؟، هل يمكن أن تذكي النشاط الفردي، أن تشعله، أن تؤججه ؟ هل يمكن أن تزيل ظاهرة الذرذرة من المجتمع ؟، هل يمكن أن تخلق إنسانا مشروطا ضابطا لذاته وغرائزه ؟، هل يمكن أن توفق بين النشاط الفردي والنشاط المجموعي تنسق بينهما، وتراعي تربة الواقع الجزائري؟، الجواب بكل بساطة : لا. لأن مشكلة الفراغ المفاهيمي كما بينها مالك مشكلة فردية تنبع من ذات الإنسان، من كيانه، من روحه، من داخل رأسه".[226]

من نتائج الفكر الإصلاحي عند "مالك بن نبي" ويعدّه البعض من الأخطاء الفكرية التي وقع فيها ونتج عن معامل القابلية للاستعمار إعطاؤه للتراب قيمة زائدة عن حدوده، ومعادلته: إنسان + تراب + وقت =حضارة. والحضارة الغربية تستغل التراب أحسن استغلال وتستثمر الوقت أحسن استثمار لكنها أوجدت أضرارا ومهالك للإنسان لم تشهدها البشرية من قبل واستغلال الإنسان - وهو مقياس الحضارة - للتراب والوقت لا ينتج بالضرورة حضارة بل قد ينتج دمارا وخرابا وتصدق المعادلة:

إنسان + تراب + وقت = دمار. « والوضع الصحيح للمعادلة هو: إنسان متوازن = حضارة".[227]

إنّ الفكر الإصلاحي عند "مالك بن نبي" في نظر الباحثين فكر تبريري وترميمي وليس فكرا يوجد ويصنع "المجتمع المسلم على أنقاض الواقع

---

[226] المرجع السابق: ص 77.

[227] المرجع السابق: ص 78.

الفاسد من خلال الأساليب التي قدمها الرسول صلى الله عليه وسلم مع صحابته في بناء المجتمع الإسلامي الأول".[228] فهو فكر ينطلق في إصلاح الواقع الفاسد من إصلاح الأطر وهي متنوعة، لا من إصلاح الإنسان في ذاته وفي جوهره ومن داخله، "فانبثاق حضارة جديدة يتم من خلال إطار مؤتمر باندونغ، وإعادة الفعالية الاجتماعية للمسلم من خلال إطار الكومنولث، وحل مشكلة الحضارة في مصر من خلال إطار المصانع والمؤسسات، وحل المشكلة المفاهيمية في الجزائر من خلال ميثاق طرابلس والإصلاح الزراعي، والاشتراكي المحدودة ليس من شك أن هذه النظرية خاطئة، فتطوير الأزهر والبرامج، وإصلاح المساجد والمحاكم، وتشكيل الجمعيات وعقد المؤتمرات، وإنشاء الكومنولث الخ كل هذه الأطر تلمس خارج الإنسان، ظاهره، ولا تمس جوهره، داخله، وهي إن نجحت في التغيير فذات أمد وأثر محدودين".[229]

ما لقيه فكر "مالك بن نبي" الإصلاحي من انتقادات ومآخذ يدخل في إطار الثراء الفكري والغنى الثقافي، فهو يشكّل بحق فلسفة تستحق البحث والدراسة والنقد التقويم إغناء لها وإثراء للفكر الإسلامي الحديث والمعاصر، ولا يحط من كون "مالك بن نبي" فيلسوف الحضارة والتاريخ، استطاع أن يقدم نظرية في الحضارة، ورؤية جديدة إلى التاريخ، هذه الرؤية التي افتقدها المصلحون الذين سبقوه أو عاصروه، رؤية التقت فيها الأفكار بعد تباين، واجتمعت الرؤى بعد اختلاف، فيها تحددت عناصر وشروط التجديد الحضاري وبناء الحضارة من خلال فكر جمع بين قوة الإسلام وسماحته وقوة التاريخ وتجارب الإنسان فيه وقوة الحضارة الغربية العلمية والتكنولوجية، الأمر الذي جعل هذا الفكر منهجا وسنة لمن أراد أن يدخل التاريخ ويصنع التقدم، ولما فيه من أصالة وتجديد.

228- المرجع السابق: ص 79.

229- المرجع السابق: ص 79.

7- مكانة مالك بن نبي في الحركة الإصلاحية في العالم الإسلامي المعاصر:

إنّ وزن المفكر أو الفيلسوف بين المفكرين والفلاسفة يصنعه فكره وتحدده فلسفته، و"مالك بن نبي" واحد من المفكرين والفلاسفة ذكرته نظريته في الحضارة، صنع مكانته فكره الإصلاحي المتميز، فتألق نجمه في سماء الحركة الإصلاحية التجديدية في العالم الإسلامي المعاصر، وذاع صيته خارج العالم الإسلامي، وصار واحدا من كبار قادة الفكر ورواد الفلسفة، في عصرنا هذا.، اعتنى بفكره وفلسفته العديد من الباحثين، بعضهم يدرس ويحلل ويدافع، وبعضهم ينقد ويقوّم، وأهمية هذا الفكر وهذه الفلسفة والعناية بها والوقوف عليها بالتحليل والتقويم كل هذا يعود إلى كونه فكرا اعتنى بقضية الحضارة، ومسألة البناء التاريخي، وهي قضية تهم كل فرد وتهم كل مجتمع وكل أمة وتهم الإنسانية جمعاء، خاصة وأنّ الحضارة بالمعنى الحديث والمعاصر تعني التقدم والازدهار في المجال الاجتماعي والاقتصادي، كما تعني السمو الأخلاقي، والتقدم العلمي والتكنولوجي، وتقابلها – ليس البداوة- ظاهرة التخلف وتعني الانحطاط الاجتماعي والضعف الأخلاقي والتدهور الفكري والفساد والفوضى، وكل ما يسيء إلى حياة الإنسان كفرد وكمجتمع. والإنسان يطمح باستمرار إلى الأفضل في الفكر والعمل والحياة عامة.، فهو ينفر من التخلف، ويطلب الحضارة والتقدم، وبما أنّ "مالك بن نبي" تفلسف حول الحضارة وشروطها وعناصرها وموانعها وعوامل انهيارها، وحول التخلف وأسبابه وموانعه فاستهوى ذلك المثقف والمفكر والباحث، وجاءت أهمية العناية بهذا الفكر في قضية البناء الحضاري والتاريخي بشكل عام.

ارتبطت نظرية الحضارة، وفلسفة الإصلاح، وفكرة التجديد الحضاري عند "مالك بن نبي" بالإسلام باعتباره المصدر الأعلى والوحي الأسمى، وكلمة الحق، والقانون الأبدي الخالد في التوجيه والتدبير في حياة الإنسان الفردية

والاجتماعية والأممية العالمية، ارتبطت بالتاريخ الإسلامي والفكر الإسلامي برمته وعلى رأسه فكر "ابن خلدون" والحركة الفكرية الإصلاحية الحديثة بزعامة "جمال الدين الأفغاني" و"محمد عبده" وغيرهما، وكان للحضارة الغربية ومنتجاتها والفكر الغربي واتجاهاته تأثير واضح على محاولة "مالك بن نبي" الإصلاحية، هذه المحاولة العلمية التي تميزت بالجّد والجدّة، سواء فيما يتعلق بمجال المتابعة والمراجعة والتقويم لمسار حركة البناء التاريخي الحضاري للأمة، أو فيما يتعلق بمحاولة التغيير والتجديد الحضاريين، وهي محاولة يعدها العديد من الباحثين ويعتبرها الكثير من المفكرين الكبار ناجحة، استطاعت أن تضع الإطار السليم والقويم لمسألة البناء الحضاري، وأن تحدد العديد من لوازمها وأدواتها، وأن تعي كل ذلك ويظهر في نسق فكري تميّز بالجدة والأصالة، وهي محاولة لم يستطع الوصول إليها مفكرون آخرون في عصره، فكانت حقّا فريدة في نوعها، وذات طابع خاص ومتميز. استطاعت هذه المحاولة أن تُلبي مطالب البحث والدراسة في نقد وتقويم حركة النهضة الإسلامية الحديثة، وتميز هذا النقد وتميّزت المراجعة بالموضوعية والجرأة، ساعد ذلك على كشف النقائص ومعرفة نقاط القوة، كما ساعد على رسم خطة الإصلاح والتجديد، بل استطاع صاحبها أن يبني فلسفة ذات نسقية وتكامل في عناصرها، فهو صاحب رؤية فلسفية للتاريخ والحضارة والإنسان تختلف عن الرؤية الخلدونية وعن رؤيا كثيرة لفلاسفة غربيين محدثين أمثال "توينبي" و"فيكو" و"سبنجلر" وغيرهم، فهو بحق فيلسوف الحضارة والتاريخ في عصرنا هذا.

إنّ نظرية الحضارة والتجديد الحضاري عند "مالك بن نبي" من إنتاج موهبة قويّة وشخصية فذّة صنعتها أحداث وظروف تاريخية فكرية واجتماعية تمثلت في إيمان صاحبها القويّ بربه وبدينيه وبرسالته وبواجبه نحو أمته، فوهب حياته لها واستنفد كل ما يملك من طاقة في سبيل الكلمة الصادقة، والفكرة النيرّة الحرّة، وفي سبيل السعي إلى إنقاذ الأمة من الفساد

وإخراجها من عالم الجهل والتخلف والانحطاط والاستعمار والقابلية للاستعمار، فنال واقع المسلمين المزري لما تميّز به من تدهور في جميع المجالات كل العناية بالبحث والفحص والتمحيص من طرفه، مشخصا المرض ومحددا أساليب الوقاية وكيفيات العلاج، فكان الطبيب الناصح، خاصة وأنّ الاستعمار الغربي لم يكن عسكريا فحسب، بل حمل معه فكرا وروحا غربية وقيمًا دينيه وفكرية تزيد في إبعاد الأمة الإسلامية عن هويتها وقيّمها، وتزيد في تشويه الإسلام والتاريخ الإسلامي وتراث المسلمين، انتقاما من جهة، وحبّا في التوسع والهيمنة الفكرية والثقافية بعد الهيمنة العسكرية والاقتصادية من جهة ثانية، لذا تصدى "مالك بن ني" للاستعمار الغربي وللفكر الغربي، بفكره وقلمه، وانتقده، سواء تعلق الأمر بفلسفات الحضارة والتاريخ في العصر الحديث أو بالنسبة للتيارات الفكرية والسياسية والاقتصادية، مثل الفكر اللّيبرالي والفكر الاشتراكي والفكر الإلحادي وغيرها، ولم يرفض التأثر والاقتباس من الفكر الغربي، ولم يعرض عن استعمال منتجات الحضارة الغربية، لكن في إطار أسلوب ومنهج وفكر يسمح بامتلاك شروط التحضر ويمنع الانغماس والتبعية في الغرب، ويرفض المديونية الحضارية، لقد شيّد "مالك بن ني" منظومة فكرية حضارية حدد فيها بدقة وانطلاقا من الدين التاريخ والواقع طبيعة التخلف، وعوامله وموانعه من جهة كما حدد عوامل وشروط وعناصر التحضر والبناء التاريخي، وبيّن أسباب التراجع الحضاري ودواعي انهيار الحضارات وأفولها من جهة أخرى، فكانت فلسفته الإصلاحية فعلاً هادفا فاعلا على طريق الوصول إلى وعي تام بالتحضر وبكل ما يتعلق بالحضارة ويتصل بها، وعي نابع من الذات الإسلامية ومقوماتها ويستثمر ما للغير من جديد، وهي صورة حيّة تعكس قضايا الأمة العربية والإسلامية الفكرية والثقافية، وتطلعات العالم الإسلامي ومفكريه الحضارية، وهي

مساهمة جادّة في حل مشكلات الأمة الحضارية في إطار قيّمها الدينية وخصائصها التاريخية.

ومكانة "مالك بن ني" وقيمة منهجه في البحث والطرح والمعالجة وفي المراجعة والنقد والتقويم ووزن فلسفته الإصلاحية ودور فكره وأهمية التجديد الحضاري عنده كل ذلك تبلور في مواقف المفكرين والباحثين الذين عاصروه أو قرءوا له، فهذا هو يقول عن نفسه: "كان مولدي في الجزائر عام 1905، أي في زمن كان يمكن فيه الاتصال بالماضي عن طريق آخر من بقي حيّا من شهوده، والإطلال على المستقبل عبر الأوائل من رواده. هكذا إذن فقد استفدت بامتياز لا غنى عنه لشاهد، حينما ولدت في تلك الفتـرة".[230] ويقول كذلك عن واجبه وعن رسالته نحو أمته: "إني حضرت إلى القاهرة للقيام بواجبين: أحدهما يخص مهمتي كاتبا يريد نشر كتاب "الفكرة الإفريقية الأسيوية" وقد يدلكم عنوانه على صلته بالقضية الجزائرية، سواء اعتبرناها من الناحية الداخلية "توجيهات تخص الكفاح" أو من الناحية الخارجية "كنشر هذه القضية في المجال الدولي" وأما الواجب الثاني الذي حضرت من أجله إلى القاهرة، فهو يتعلق بشخصي بصفتي جزائريا أسهم في الكفاح ضد الاستعمار منذ ربع قرن، ويأتي الآن كي يواصل هذا الكفاح تحت راية الثورة الجزائرية".[231] ويقول في كونه مصلحا: "كنت أعيش بباريس وأحمل بها وحدي لواء الإصلاح في وجه العواصف والأعاصير التي كان يثيرها الاستعمار على خصومه".[232]

يذكر العديد من المفكرين فكر وفلسفة ومنهج "مالك بن ني" وينعتون ذلك بالقوة والمتانة والدقة واليقين، وهذا "الأستاذ راشد الغنوشي" يعتبر مالك بن ني" "مدرسة في الفكر الإسلامي الحديث، لم ينصب فكره

---

[230]– مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، ص 15.

[231]– مالك بن نبي: في مهب المعركة، ص 120.

[232]– المرجع السابق: ص 120.

على النص الإسلامي، وإنّما على مناط تطبيقه على المجتمع من إعادة بناء الحقيقة الموضوعية في نظر العقل السلم، بالكشف عن سنن البناء الحضاري وتطوره في اتجاه القوة والضعف فمالك يرى أن الحضارة ليست نظرية في الفلسفة وفي المعرفة عامة مهما كانت جميلة ومتناسقة حتى ولو كان الإسلام ذاته، وإنما الحضارة إنجاز في عالم الزمان والمكان، ثمة تفاعل فكرة مع واقع بحسب شروط موضوعية لا تتخلف".[233]

يصف شخصية "مالك بن نبي" وخصاله أحد تلاميذه المقربين "الأستاذ عمّار طالبي" وقد اتسم فيما يرى التلميذ أستاذه "بفكر حاد، وذهن نفاذ يعاني ويفكر ففكره فكر حي، فعال مركز، تغلب عليه الصور العقلية، لا الصور اللّفظية، فيما يتكلم وفيما يكتب. يشعر في أعماقه بأن له رسالة وبالرغم من الصعاب التي واجهته في حياته الشاقة، فإنه لم يتزلزل في يوم، ولم يشعر بأن عليه أن يترك رسالته، ويلقي بعبئها، وشخصيته شخصية أخلاقية ملتزمة بالأخلاقية الإسلامية الصافية، ذو أصالة وهمّة عالية، وأنفه شامخة، عوده لا يلين في الحق، وقلبه لا يخشى فيه لومة لائم، ولعل تكوينه الرياضي والعلمي وسمه بالوضوح، لا لبس فيه، وذلك في يقيني ما أصّل فيه فضائله العقلية ورسّخ ميزاته الأخلاقية".[234]

تألّق نجم "مالك بن نبي" في فضاء فلسفة الحضارة في عصرنا الحاضر، و"طرح أفكارا أو فرضيات كثيرة في غاية الأهمية، لكن الثقافة الفقهية والوعظية والمنهجية الآلية أو الحرفية في التعامل مع الوحي والواقع والتراث والمستقبل همشّت هذه الأفكار الجنينية الهامة وحرمتها من النمو الطبيعي، واستكمال نضجها، وإفادة الأمة بها، في وقت هي أشد ما تكون احتياجا إليها. وبهذا وقع له مثلما وقع لابن خلدون قبله عندما

---

[233]- نقلا عن الطيب برغوث: موقع المسألة الثقافية من إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، ص 3.

[234] عمار طالبي: مقال "مالك بن نبي و الحضارة"، مجلة الثقافة، السنة الثالثة، العدد18، سنة 1973

لفّه ليل الانحطاط الحضاري، ولم تمكن ظروف الأمة أفكاره الجديدة من النمو والتبلور والنضج والتمثل في واقع الأمة. وللعلماء الاجتماعيين المسلمين مسؤولية كبيرة في ربط حلقات هذه المدرسة الحضارية، ومواصلة تأكيد حضورها، وتحويلها إلى محور ارتكاز أساسي في المنظومة الثقافية للحركة الإسلامية والأمة عامة، باعتبارها المصب الحتمي لبقية الروافد الفكرية الأخرى في عملية البناء الحضاري".[235]

يذكر خصاله العديد من الباحثين والمفكرين، فهو عندهم "ليس كاتبا محترفا، أو عاملا في مكتب مكبّا على أشياء خامدة من الورق والكلمات، ولكنه رجل شَعَرَ في حياته الخاصة بمعنى الإنسان في صورتيه الخلقية والاجتماعية. وتلك هي المأساة التي شعر بها بن نبي بكل ما فيها من شدة، وبكل ما صادف من تجاربه الشخصية النادرة من قساوة. وهي التي تقدم المادة الأساسية لمؤلفاته سواء "الظاهرة القرآنية" أو الدراسة".[236] التي يقدمها اليوم كأنشودة بهيجة يحي بها "كوكب المثالية" الذي يسجل فجر الحضارات منذ العصور المظلمة...وتكوين المؤلف كمهندس قد ساعده دون شك في التصور الفني للأشياء، ولكن ثقافته المزدوجة تسمح له بأن يصل هذا التصور بالخطة الإنسانية... ونضيف إلى هذا أن الأمر لا يتعلق بعمل مفيد للجزائر فحسب، لأن هذه الدراسة تتعدى بعبقريتها حدود الجزائر، لكي تضم مجال العالم الإسلامي كله، حيث أنّها تتضمن المشكلة الإنسانية في سائر عناصرها ونحن نأمل أن تخدم هذه الدراسة سير النهضة في العالم العربي وفي العالم الإسلامي، للذين يجب أن تتوافق صحوة ضميرهما مع ضابط النغم في الضمير العالمي، الذي يبحث بصورة مؤثرة عن وسائل طمأنينته في طريق السلام والديمقراطية".[237]

---

[235]– الطيب برغوث: موقع المسألة الثقافية من إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، ص 8.

[236]– المقصود بالدراسة كتاب "شروط النهضة" لمالك بن نبي.

[237]– محمد عبد السلام الجفائري: مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي، ص 48.

لقد كان "مالك بن نبي" ناقدا، انتقد حركة النهضة ونظر إليها نظرة تحليلية، وأبرز فيها المساوئ والمحاسن، كما انتقد وضع المسلمين وما آل إليه حالهم من تعاسة وبؤس ومن انحطاط حضاري، واهتم كثيرا بقضية الإصلاح والتجديد، وتمحور فكره على مسألة الحضارة التي أهتم بها المفكرون المسلمون في العصر الحديث، مثل "جمال الدين الأفغاني" و"محمد عبده" وغيرهما، هؤلاء الذين انتقد فكرهم "مالك بن نبي" واكتشف عيوبا منهجية في حركة الإصلاح عندهم، ومع تقديره للكثير من الجوانب الإيجابية فيها فهو يرى "بأن الحركة الإصلاحية لم تهتم بالفكر باعتباره أداة إيجابية ذات فعالية وحركة، ولكنها نظرت إليه باعتباره زينة وترفا فافتقدت الفعالية المطلوبة التي تعتبر عنده من الأسس الأولى التي يجب الاهتمام بها ليكون للفكر أثره الإيجابي".[238]
ويتسم "مالك بن نبي "في فكره حسب أحد المفكرين المقربين إليه "الدكتور محمد المبارك" بأنه "ليس مفكرا كبيرا وصاحب نظرية فلسفية في الحضارة فحسب، بل داعيا مؤمنا يجمع بين نظرة الفيلسوف المفكر ومنطقه، وحماسة الداعية المؤمن وقوة شعوره، وإنّ أثاره في الحقيقة تحوي تلك الدفعة المحركة التي سيكون لها في بلاد العرب أولا وفي بلاد الإسلام ثانياً أثرها المنتج وقوتها الدافعة، وقلما استطاع كاتب مفكر أن يجمع بين سعة الإطار والرقعة التي هي موضوع البحث، وعمق النظر والبحث وقوة الإحساس والشعور إنه ينهل من نفحات النبوة ويتابع الحقيقة الخالدة".[239] ويقول عنه "الأستاذ أنور الجندي": "مالك بن نبي يختلف كثيرا عن الدعاة المفكرين والكتاب، فهو فيلسوف أصيل له طابع العالم الاجتماعي الدقيق الذي أتاحت له ثقافته العربية والفرنسية أن يجمع بين علم العرب وفكرهم المستمد من

---

[238]- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 13.

[239]- محمد عبد السلام الجفائري: مشكلات الحضارة عند مالك بنبي، ص 48.

القرآن والسنة والفلسفة والتراث العربي الإسلامي الضخم وبين علم الغرب وفكرهم المستمد من تراث اليونان والرومان والمسيحية".[240]

يستخلص الباحث من دراسته لأفكار مالك بن نبي حول الحضارة والتخلف والثقافة والإصلاح والتجديد، أنّه المفكر والفيلسوف، والناقد والمصلح. يحتل فكره مكانة بارزة في الحركة الإصلاحية الإسلامية المعاصرة، وتمثل نظريته في الحضارة والتاريخ اجتهادا في الفكر والفلسفة لم يسبق إليه أحد قبله، انبثق هذا الاجتهاد الفلسفي من الإسلام والفكر الإسلامي وواقع العالم الإسلامي والشعوب المتخلفة عامة من جهة، ومن الحضارة الغربية والفكر الغربي من جهة ثانية، إن مالك بن نبي يمثل بحق رائد فكر وصاحب تجديد وواحدا من كبار دعاة الإصلاح والتجديد والحضارة.

---

[240]– الدكتور أسعد السحمراني: مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، ص 22.

خاتمة

إنّ المتصفح لفلسفة "مالك بن نبي" في الإصلاح ولنظريته في الحضارة والتجديد، يكتشف عالما فكرياً فلسفياً مليئاً بالمفاهيم وغنياً بالتصورات وفريداً في نوعه وجديداً في العديد من جوانبه، خاصة فيما يتعلق بالحضارة وعناصرها وشروطها وأطوارها، فهو يري أن ظاهرة التخلف ليست طبيعية في البشر، بل تعود إلى أسباب ذاتية وأخرى موضوعية، وتستفحل عندما تغيب الشروط والأدوات اللاّزمة للنّمو الفكري والأخلاقي والاجتماعي، هذا النّمو هو السبيل إلى التحضر، تقابله مجموعة من المشاكل والوضعيات والظروف الفاسدة المنهارة في حياة الفرد والجماعة في جميع جوانبها الفكرية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، هذه المشاكل والظروف والوضعيات ترتبط بظاهرة التخلف والانحطاط، وتقوم الحضارة باعتبارها إطاراً يضمن لكل فرد داخل المجتمع مطالبه وحاجاته في كل طور من أطوار وجوده، بإعطائه الأدوات واللوازم الضرورية للمجتمع النامي المالك لقدرات فكرية واجتماعية واقتصادية إرادة استعمال سائر القدرات في حل المشاكل التي تواجه المجتمع المتخلف، والحضارة هي التي تكوّن هذه القدرة وهذه الإرادة معًا، وهما لا تقبلان الانفصال عن دور المجتمع النامي، فالحضارة هي شرط إيجاد القدرة والإرادة لتجاوز التخلف والتدهور في ذات الفرد وفي مجتمعه، وهي ترتبط بالإنسان والتراب والزمن والفكرة الدينية التي تجمع بين العناصر الثلاثة في مركب واحد هو الحضارة. ولها عمر وأطوار هي: طور الروح، طور الأوج، وطور الأفول، تسبقها مرحلة ما قبل الحضارة وتليها مرحلة ما بعد الحضارة،

لكل واحدة من المرحلتين خصائص ومميزات، وتشترط الحضارة التغيير على أسس القاعدة الإلهية التي تعبر عنها الآية القرآنية: ﴿إِنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾.[241]

ظاهرة التغيير مجالها النفس أولا ثم المحيط الخارجي ثانيا، تشرط القدرة على الإبداع والقدرة على الإنتاج، ولا تقوم على التكديس والاستيراد بل على البناء، وأن تلد الحضارة منتجاتها لا العكس، لأنّ العكس يستحيل منطقيا وماديا، ويغرق المجتمع في الشيئية من جهة وفي المديونية والتبعية الحضارية من جهة ثانية، وتشترط التوجيه الأخلاقي والعملي والفني الجمالي، وهي شروط تضمن الانسجام والتكامل بين المجهود الإنساني المبذول في مستوى الفرد وفي مستوى المجتمع مع سنن وقوانين الآفاق والهداية والتطلعات، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى تكفل تلك الشروط التكامل والانسجام بين المجهود الإنساني والسنن الكونية مع جملة الشروط النفسية والاجتماعية والروحية والمادية من أجل النمو والازدهار في جميع مجالات الحياة الإنسانية.

الحضارة بالمعنى المذكور هي فعل بنائي تقتضي أُسُساً فكرية وروحية وجهوداً كبيرة في عالمي الأشخاص والأشياء، وذلك يشترط مخطط تربية يهدف إلى تغيير الإنسان في الداخل وفق شروط معينة ليتمكن من أداء دوره في المجتمع ويحقق البناء الحضاري.

إذا كانت الحضارة بناءا لا تكديسا واستيرادا فهي فاعلية إنسانية تقوم على تغيير الإنسان في عالمه النفسي أولا ثم تغيير محيطه ثانيا، وتحصل هذه الفاعلية بتوفر جملة من الشروط والعوامل النفسية والاجتماعية

---

[241]- قرآن كريم: سورة الرعد، الآية 11.

والروحية والمادية، وبتوفر الإرادة والقدرة على إبداع المعرفة وإنتاج الأشياء، واستغلال ذلك لخدمة الإنسان وضمان راحته، ولفصل الحضارة الحقيقية عن الحضارة المزيفة، فالأولى تلد منتجاتها أما الثانية فهي من صنيع منتجات حضارات الغير، والتجديد الحضاري ظاهرة إنسانية ترتبط بالحضارة وبشروطها وعناصرها وأطوارها وازدهارها وتكون سابقة على الحضارة فتصنع النمو والتحضر والازدهار، كما تكون ملازمة لها فتستمر في تنميتها وتطويرها، وقد تكون سببا في انهيارها وأفولها، والمقصود هنا عندما تبلغ الحضارة طور العقل يضعف سلطان الروح وتسترد الغريزة نفوذها فتهوي بالإنسان إلى حضيض الحيوانية حيث شريعة الغاب.

لقد تميزت نظرية الحضارة عند "مالك بن نبي" بجملة من المميزات التي لم يشهدها مصلح آخر في فكره الإصلاحي، فهي نظرية انبثقت من تحليل تميّز إلى حدّ بعيد بطابعه العلمي، وبالدقة والعمق والموضوعية، والواقعية في طرحه ومعالجته للمشكلات والظواهر في حياة الفرد والمجتمع، كما تميزت الحلول التي جاء بها لتلك المشكلات والتصورات التي خرج بها من دراساته وبحوثه المعمقة للتاريخ والواقع بالقوة لارتباطها بالعلم والواقع والتاريخ والدين، وتميّز منهجه في البحث بطابعه العلمي وبتنوعه، فهو يستخدم المنهج الرياضي وطريقة المؤرخ ومسلك عالم الاجتماع وسبيل الكيميائي وغيرها، هذا ما زاد في متانة وقوة أفكاره ودقتها، وزاد في انسجام هذه الأفكار والتصورات مع ما يجب فعله في العمل الإصلاحي التجديدي.

تمثل نظرية "مالك بن نبي" في الحضارة، إستراتيجية إصلاحية تجديدية تستهدف تغيير الواقع الإنساني عامة وواقع العالم المتخلف - العالم الإسلامي جزء منه - بصفة خاصة، بحيث تضع بين يديه آلية فكرية نظرية للخروج من التخلف وبلوغ مستوى الحضارة، فهي مشروع منهج وضعه صاحبه للقضاء على ظاهرة التخلف بعدما درسها وكشف عن عوامل وأسباب

وجودها، ولغرض الوصول إلى الحضارة بعدما درسها وكشف عن قوانينها وآلياتها الروحية والمادية. تميّز هذا المنهج بالقوة والمتانة لارتباطه بالعلم والدين والتاريخ، وبقوانين هذه الأطر الفكرية والروحية باعتبارها مصادر توجيه وقيادة في حياة الإنسان، ولارتباطه بالفكر الإنساني القديم والحديث وبواقع الإنسان المعاصر في العالم المتقدم بما له وما عليه، وفي العالم المتخلف بما عليه، وخاصة في العالم الإسلامي الذي لا ينقصه سوى تطبيق المناهج الكفيلة بإخراجه من عالم الانحطاط وتمكينه من الحضارة، وهو أمر ليس بعسير على إنسان بين يديه كافة شروط التحضر. فهو منهج في الإصلاح يستند إلى رؤية فلسفية إلى الإنسان والحضارة والتاريخ، وإلى فكر اجتمعت فيه الأصالة مع التجديد، فكان مشروع خطة للنهضة وللصحوة وللحضارة، ونموذجا من نماذج الفكر الإصلاحي لا يستهان به، بل يقدر حق قدره لِمَا لصاحبه من نظرة ثاقبة وقدرة على الطرح والتحليل والنقد والاستنتاج، ولما لهذا المنهج من تكامل بين عناصره، ومن انسجام مع ما تقتضيه مستلزمات البناء التاريخي والنهضة الحضارية.

لقد تبيّن لي وبوضوح من قراءتي لبعض الجوانب الهامة في فلسفة الحضارة والتاريخ عند "مالك بن نبي"، أن ما يجمع بين محاولته ومحاولات غيره من مفكري الإسلام في العصر الحديث والمعاصر الكثير، ويتعلق الأمر بالظروف التاريخية الزمنية والمكانية التي الواحدة والمتشابهة، والتي فيها نبتت فكرة الإصلاح عندهم، فهي واحدة تماما، حيث الإسلام والاستعمار والتخلف في العالم الإسلامي من جهة والحضارة والعلم والتكنولوجيا في أوربا الحديثة والمعاصرة من جهة أخرى، هذا الذي شكل روافد ومصادر الفكر الإصلاحي في عصرنا، وأوجد وحدة في المبادئ والأهداف والتطلعات، والاختلاف بين المحاولات ليس في الجوهر أو في الأساس أو في الهدف، بل في بعض الجوانب التي

تخص طبيعة البحث والدراسة وطبيعة الإصلاح ومنهجه، ونوع المحاولة وخصوصياتها.

فالبحث عند "مالك بن نبي" جاء ذا طابع علمي واقعي، وجاء الإصلاح بطابع اجتماعي علمي واقعي تاريخي، وجاء منهج البحث يقوم على التغيير في الفرد والمجتمع، وعلى القضاء على أسباب التخلف والأخذ بأسباب الحضارة كما هي في نظرية الحضارة، كما يقوم على التوجيه الديني والأخلاقي والعملي مع الاستفادة من خبرات وتجارب الآخرين العلمية والحضارية، ولم تكن المحاولة خاصة أو موجهة لفئة بعينها بل جاءت عامة تشمل العالم المتخلف والعالم العربي والإسلامي جزء منه لكونها مشروع تحرر واستقلال وإصلاح ونهضة وتحضر، وهو مشروع يعني أي عالم متخلف يحتاج إلى الخروج من التخلف وأي أمة تسعى نحو الريادة.

جاءت فكرة التجديد الإصلاح في المشروع نتيجة واقع المسلمين المتردي، وتُشكّل محاولة فكرية لتغيير النفس والفكر والواقع في العالم الإسلامي، تميزت بالقوة لارتباطها بالإسلام وبالعلوم المزدهرة وبالفكر الإسلامي، وتشكل رؤية فلسفية إلى الإنسان والحياة والتاريخ والحضارة، وتمثل مشروع خطة ذات طابع فكري نظري، للنهضة وللتجديد ولبناء الحضارة، وللدخول إلى التاريخ، وإلى حلبة المعترك الحضاري، واحتلال أمة الإسلام لمكانتها اللائقة بها في إطار الحوار والتواصل الندّي الحضاريين.

إذا كان الفكر الإصلاحي عند مالك تميز بالقوة والمتانة نظرا لصلته المباشرة بواقع وحياة المسلمين في العالم الإسلامي المعاصر، ولتعبيره عن مشاكلهم وهمومهم، وعن آمالهم وتطلعاتهم، وبلوغه مستوى رفيع من الحقيقة في مناهجه وأساليبه لأنه أخذ بالدين والعلم وبالتاريخ، واستطاع أن يكفل التوازن بين طرفي الكمال، الروح والمادة، الدين والدولة، الدنيا

والآخرة، فما أحوج العالم الإسلامي المعاصر إلى المشروع للتجديد ولبلوغ السمو الروحي والأخلاقي، ولبناء حضارة تلد منتجاتها الفكرية والمادية، ولضمان التوازن بين المثال والواقع، بين الروح والمادة، وبين الدين والدولة، ذلك هو عين التحضر وقمّته، وهو مبتغي الإسلام ومقصده، فالحضارة هي التمكين لقيّم ومبادئ الإسلام على أرض الله.

قائمة المراجع والمعاجم والموسوعات والمجلات

1ـ مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبدا لصبور شاهين، دار الفكر،الطبعة الثالثة، بيروت، لبنان، 1969.

2- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، بيروت- لبنان، بدون طبعة، وبدون سنة.

3- مالك بن نبي: تأملات، دار الفكر، بيروت- لبنان، بدون طبعة، وبدون سنة، إصدار ندوة مالك بن بي.

4- مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه، إشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر الجزائر، دار الفكر دمشق، سورية، الطبعة الثانية، 1988.

5- مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة د. بسام بركة ود. أحمد شعبو، دار الفكر الجزائر، دار الفكر دمشق- سوريا، الطبعة الأولى، 1992.

6- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، إشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق- سوريا، تصويره عام 1985 عن الطبعة 1981.

7- مالك بن نبي: فكرة كومنولث إسلامي، ترجمة الطيب الشريف، دار الفكر، دمشق سوريا، إشراف ندوة مالك بن نبي، الطبعة الثانية 1990.

8- مالك بن نبي: آفاق جزائرية "للحضارة ـ للثقافة ـ للمفهومية"، ترجمة الطيب الشريف، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، بدون طبعة، وبدون سنة.

9- مالك بن نبي: حديث في بناء الجديد، ترجمة عمر كامل مسقاوي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا -بيروت- لبنان، بدون طبعة، وبدون سنة.

10- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع "شبكة العلاقات الاجتماعية" ترجمة عبد الصبور شاهين، إصدار ندوة مالك بن نبي، دار الفكر بيروت-لبنان، الطبعة الثانية، 1974.

11- مالك بن نبي: فكرة الإفريقية الأسيوية في ضوء مؤتمر باندونج، ترجمة عبد الصبور شاهين، إصدار ندوة مالك بن نبي، دار الفكر الجزائر، دار الفكر دمشق- سوريا، الطبعة الثالثة، 1992.

12- مالك بن نبي: الصراع الفكري في بلاد المستعمرة، إصدار ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، بدون طبعة، وبدون سنة.

13- مالك بن نبي: في مهب المعركة "إرهاصات الثورة"، دار الفكر دمشق، سوريا، دار الفكر المعاصر، لبنان، الطبعة الأولى، 1991.

14- مالك بن نبي: دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، دار الفكر، دمشق-سوريا، تصويره 1985 عن طبعة 1978.

15- مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، دار الفكر الجزائر، دار الفكر دمشق، سوريا، الطبعة الثالثة، 1987.

16- مالك بن نبي: مذكرات شاهد للقرن، إشراف ندوة مالك بن نبي.

القسم الأول الطفل 1905 ـ 1930.
القسم الثاني الطالب 1930 ـ 1939.
دار الفكر، دمشق- سوريا، الطبعة الثانية، سنة 1984.

17- مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، طبعة منقحة ومكملة ومرتبة ترتيبا جيدا، بدون سنة.

18- أسعد السحمراني: مالك بن نبي «مفكر إصلاحيا» دار النفائس، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، سنة 1986.

19- محمد عبد السلام الجفائري: مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1984.

20- عبد اللطيف عبادة: صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة- الجزائر، الطبعة الأولى، 1984.

21- الطيب برغوث: موقع المسألة الثقافية من إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، دار الينابيع للنشر والإعلام، الجزائر، الطبعة الأولى، 1993.

22- عكاشة شايف: الصراع الحضاري في العالم الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة 1984.

23- عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت-لبنان، الطبعة الثانية، 1996.

24- أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي بيروت، لبنان، بدون طبعة، وبدون سنة.

25– محمد أركون: الفكر الإسلامي، "نقد واجتهاد"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1993، بدون طبعة.

26– محمد التومي: المجتمع الإنساني في القرآن الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الطبعة الثانية، 1990.

27– غازي التوبة: الفكر الإسلامي المعاصر "دراسة وتقويم"، دار القلم، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1977.

28– مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، دار الصديقية، الجزائر، بدون طبعة، وبدون سنة.

29– شكيب أرسلان: لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم، مكتبة رحاب، الجزائر، 1989، بدون الطبعة.

30– على حرب: مداخلات، دار الحداثة، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، 1985.

31– قسطنطين زريق: نحن والمستقبل، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، سنة 1980.

32– أنور عبد المالك: الفكر العربي في معركة النهضة، ترجمة بدر الدين عرودكي، دار الآداب، الطبعة الثالثة، 1981.

33– محمد البهي: الفكر الإسلامي في تطوره، دار الفكر، الطبعة الأولى، 1971.

34– محمد أركون: الفكر العربي، ترجمة الدكتور عادل العوّا، د. م. ج.، الجزائر، الطبعة الثانية، سنة 1982.

35- البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة، 1798-1939، ترجمة كريم عزقول، دار النهار للنشر، بيروت- لبنان، الطبعة الثالثة، 1977.

36- محمد الغزالي: سرّ تأخر العرب والمسلمين، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، بدون طبعة، سنة 1986.

37- ماجد فخري: مختصر تاريخ الفلسفة العربية، دار الشورى، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1981.

38- فرحان صالح: جدلية العلاقة بين الفكر العربي والتراث "رؤية نقدية"، دار الحداثة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1983.

39- ضيف الله محمد الأخضر: محاضرات في النهضة العربية الحديثة، ديوان المطبوعات الجامع، الجزائر، الطبعة الثانية، 1981.

40- ضيف الله محمد الأخضر: محاضرات في الحضارة العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، بدون طبعة، سنة 1982.

41- محمد عبد المنعم خفاجي: البحوث الأدبية مناهجها ومصادرها، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية، 1980.

42- أبو الأعلى المودودي: موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه، واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم، دار الفكر، الطبعة الثالثة، سنة 1976.

43- أبو الأعلى المودودي: نحن والحضارة الغربية، دار الشهاب للطباعة والنشر باتنة، الجزائر بدون طبعة وبدون سنة.

44- ماجد فخري: تاريخ الفلسفة الإسلامية، ترجمة كمال اليازجي، الجامعة الأمريكية، بيروت، سنة 1974.

45- محمد سعيد رمضان البوطي: من الفكر والقلب "فصول من النقد في العلوم الاجتماعية والآداب" دار الهدى، عين مليلة-الجزائر، طبعة خاصة، بدون سنة.

46- مصطفي محمد الغماري: أسرار الغربة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، بدون طبعة، وبدون تاريخ.

47- الشيخ محمد عبده: الثائر الإسلامي جمال الدين الأفغاني ورسالة الرد على الدهريين، دار الشباب للطباعة والنشر، باتنة- الجزائر بدون طبعة، وبدون سنة.

48- الشيخ محمد عبده. الإسلام والنصرانية بين العلم والمدينة، المؤسسة الوطنية للكتاب، بدون طبعة، وبدون سنة.

49- محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، دار الفكر للطباعة والنشر، الطبعة السادسة، 1973.

50-عمر فروخ: الحضارة الإنسانية وقسط العرب فيها، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، سنة 1983.

51- عمار طالي: آثار ابن باديس، مكتبة الشركة الجزائرية للتأليف والترجمة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1968.

52- إقبال محمد: تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود، دار التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1955.

قائمة المصادر والمراجع بالفرنسية

1_ Garaudy. Roger : L'islam vivant.
Maison des livres. Alger. 1986.

2_ Malek Ben nabi : La démocratie en Islam.
Imprimerie SARRI. Alger.

3_ Malek Ben nabi : Le problème des idées dans
Le monde musulman.
Edition EL BAY. Yinate. Alger. 1990.

4_ Malek Ben nabi : Le phénomène coranique.
Edition Dar al_thuraya. Alger. 1946.

قائمة الموسوعات والمعاجم بالعربية والفرنسية

- علي بن هادية وبلحسن البليش والجيلالي بن حاج يحي: القاموس الجديد للطلاب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الطبعة السابعة 1991.
- سهيل إدريس: المنهل الوسيط، قاموس فرنسي عربي، دار الآداب، بيروت-لبنان، الطبعة السابعة، 1999.
- Petit Larousse en couleurs, Lebrairic Larousse 17 Rue de mont parnassc 117, Paris, VI°.
- ابن منظور: لسان العرب "البحر المحيط"، إعداد وتصنيف يوسف خياط، قدم له الشيخ عبد الله العلايلي. دار لسان العرب، بيروت، دون تاريخ.
- طالي عمار: اصطلاحات الفلاسفة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.
- فاخر عاقل: معجم علم النفس، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1979.
- جميل صليبا: المعجم الفلسفي ج1 وج2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982.
- المسعدي محمد: القاموس الجديد للطلاب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الطبعة التاسعة، سنة 1991.
- André Lalande: Vocabulaire technique et critique de la philosophie, presses universitaire de France, 13° édition Paris 1980.
- محمود يعقوبي: معجم الفلسفة، مكتبة الشركة الجزائرية، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1979.

▪ الموسوعة الفلسفية المختصرة: نقلها عن الإنجليزية فؤاد كامل، جلال العشري، عبد الرشيد الصادق، أشرف عليها الدكتور زكي نجيب محمود، دار القلم، بيروت- لبنان.

▪ الموسوعة الفلسفية: من وضع لجنة من الأكاديميين والعلماء السوفيتيين، ترجمة سمير كرم، الدكتور صادق جلال العظم، جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1981.

قائمة المجلاّت:

1ـ مجلة الثقافة، الجزائر، العدد 18، 1973.

2ـ مجلة المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، العدد 4، سنة 2000.

3- Que sais-je de l'islam, N12, 1978.

فهرس المحتويات

البناء الحضاري

عند "مالك بن نبي"

إنّ التقدم الذي يحققه الإنسان من خلال العمل في حياته الفردية والاجتماعية يشكّل ظاهرة إنسانية متميّزة وفريدة في نوعها، منها تتشكّل الحضارة، وبها يقوم البناء الاجتماعي ويتحرك التاريخ، فتنهض الأمة وترقى في سُلّم التجديد الحضاري، وكل تغيير وتحوّل وتجديد في الفكر والسلوك، وفي نمط العيش وفي وسائل العمل أساليبه وفي غير ذلك من جوانب حياة الإنسان يُعدّ من روح التحضر ومن صميم الحضارة، ويُعرفُ بالتجديد الحضاري الذي هو وراء أيّ حضارة وأساس كل تقدم.

وظاهرة التجديد الحضاري ترتبط سببيا وحتما بكل فاعلية إنسانية تستهدف بناء الإنسان ذاتيا واجتماعيا وتاريخيا، وترتكز على أيّة انطلاقة نحو بناء التاريخ والتقدم وصنع الحضارة، فهي وراء كل نهضة أو صحوة بعد غفلة وضياع.

من المقدمة

تصميم الغلاف تفاحي سليمان

DL 2464/2010

9789961486269